

سلسلة اقرأ (2)
منشورات الدعوة السلفية
كتاب رقم (77)

نور على الدرب كلمات في الدعوة والمنهاج

إعداد
أبي عبد الرحمن السلفي
المقدسي
هشام بن فهمي العارف



إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا،
ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.
(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم

مُسْلِمُونَ (102) سورة آل عمران.
**(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق
منها زوجها وثبت بينهما رجلاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي
تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً (1) سورة النساء.**
**(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً (70) يصلح لكم
أعمالكم ويعفّر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد قار
قورا عظيماً (71) سورة الأحزاب.**

أما بعد،

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه
وسلم وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل
ضلالة في النار.

فهذه بفضل من الله تعالى سلسلة اقرأ جمعتها هنا تحت عنوان "نور على
الدرب، كلمات في الدعوة والمنهاج" بعد أن كانت مفرقة على شكل
مقالات، وهذه المقالات نشرت في جريدة القدس "جريدة يومية سياسية
تأسست سنة 1951" في القدس - فلسطين، وفي مجلة الأصالة "رسالة
إسلامية منهجية جامعة" الناشر لها: مركز الألباني للدراسات المنهجية
والأبحاث العلمية، في عمان - الأردن، وفي مجلة السبيل التي كانت
تصدرها جمعية القرآن والسنة في قلقيلية - فلسطين.
وهذه المقالات هنا مسلسلة من رقم 26 إلى رقم 50 مجموعة في هذا
الكتاب تحت عنوان سلسلة اقرأ (2) ومن ثم يليها إن شاء الله سلسلة اقرأ
(3) كلما سنحت الفرصة لجمع مقالات أخرى.

وإليك المقالات:

26- قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. درس في المسجد

الأقصى في آخر جمعة من رمضان 1423 هـ.

27- تفسير قوله تعالى : إن هو إلا ذكر وقرآن مبين : درس في

المسجد الأقصى .

28- من هم الأخسرون؟ : نشرتها جريدة القدس على حلقتين ، العدد

11950 تاريخ 20/9/1423 هـ والعدد 11951 تاريخ 21/9/1423 ،

ومجلة الأصالة العدد 43 .

29- معنى قوله تعالى : عتل بعد ذلك زنيم : نشرتها جريدة

القدس ، العدد 11245 تاريخ 14/9/1421.

- 30- معنى قوله تعالى فذكر إن نفعت الذكرى** : نشرتها مجلة السبيل العدد 5 و 6 تاريخ 12/1418 .
- 31- تفسير سورة المسد** : نشرتها مجلة السبيل العدد 8 تاريخ 6/1419 .
- 32 - وحدة الصف من تسوية الصف** : نشرة (سلسلة من هم الغرباء؟).
- 33- منازل الندم** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11935 تاريخ 5/9/1423 .
- 34- أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11247 تاريخ 16/9/1421 .
- 35- إن الله لا يحب العقوق** : نشرتها جريدة القدس 11604 تاريخ 24/9/1422 .
- 36- لا يدخل الجنة قاطع** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11260 تاريخ 29/9/1421 .
- 37- بلوا أرحامكم ولو بالسلام** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11255 تاريخ 24/9/1421 .
- 38- اتقوا الله وصلوا أرحامكم** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11258 تاريخ 27/9/1421 .
- 39- أرحامكم أرحامكم** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11253 تاريخ 22/9/1421 .
- 40- التائب من الذنب كمن لا ذنب له** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11593 تاريخ 13/9/1422 .
- 41- على كل عضو من أعضاء بني آدم صدقة** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11594 تاريخ 14/9/1422 .
- 42- حب الدنيا رأس كل خطيئة** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11606 تاريخ 26/9/1422 .
- 43- حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11598 تاريخ 18/9/1422 .
- 44- الناس أربعة والأعمال ستة** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11584 تاريخ 4/9/1422 .
- 45- يا أيها الناس ابتاعوا أنفسكم من الله من مال الله** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11586 تاريخ 6/9/1422 .
- 46- من صمت نجا** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11589 تاريخ 9/9/1422 .
- 47- خير الناس من طال عمره وحسن عمله** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11600 تاريخ 20/9/1422 .
- 48- إن عظم الجزاء من عظم البلاء** : نشرتها جريدة القدس ، الأعداد 11853 و 11751 و 12033 تاريخ 3/9/1422 و 27/2/1423 و 20/12/1423 ومجلة الأصالة ، العدد 36 .
- 49- مصدر المعرفة الصحيح** : نشرتها جريدة القدس ، العدد 11949 تاريخ 19/9/1423 .

50- الحذر من الأهواء : مقالة مقتطعة من كتاب "تبصير المسلمين إلى الصراط المستقيم".

(26)

قد جاءكم من الله نور وكتاب

مبين

1/ طريق الفلاح

في سورة النور قال الله تعالى: (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (51). لقد حصر الله تعالى الفلاح في الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهوائهم أو خالفها (أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه ، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج.

وفي سورة الأعراف (39/نزول) حين كان السياق في أحوال بني إسرائيل تلك الأمة التي سبقتنا قال الله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (157)، وفيها لفت الله تعالى انتباه أهل الكتاب إلى ضرورة اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الإيمان به

شرط في دخولهم الإيمان وهو الذي يجدونه باسمه وصفته والتي من أعظمها وأجلها ما يدعو إليه وينهى عنه. وأنه صلى الله عليه وسلم جاءهم وهم في ظلمات الشك والحيرة لما وقع ما وقع في كتبهم وعلومهم الشرعية من التحريفات والمبتدعات والتأويلات الفاسدة الضالة فجاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالصفة التي يعرفونها ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فهو صلى الله عليه وسلم يأمر بتوحيد الله عز وجل وترك ما يعبد سواه، ويأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهاهم عن الشرك بالله تعالى، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك. ويحل لهم من الطيبات من المطاعم والمشارب والمناكح، ويحرم عليهم الخبائث من المطاعم والمشارب والمناكح والأقوال والأفعال. ومن وصفه صلى الله عليه وسلم أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف ثقال. ثم قال الله تعالى مبيناً سبيل الفلاح وذلك باتباع ما أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: **(قَالِذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** أي: فالذين عظموه وبجلوه ونصروه صلى الله عليه وسلم واتبعوا النور الذي أنزل معه وهو القرآن - الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات والضلالات - أولئك هم المفلحون، ففي الآية كما ترى أيضاً مخرج مهم لأهل الكتاب وغيرهم للخروج من ظلمات الشك والحيرة.

2/ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ

وفي سورة فاطر (43/نزول) قال الله تعالى **(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ .. (22))**. قال الشيخ السعدي - رحمه الله تعالى - يخبر تعالى انه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده. فكما أنه من المتقرر عندكم، الذي لا يقبل الشك أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي التضادات المعنوية أولى وأولى. فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب وميزت الأشياء وبان

الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإيثار. أنتهى.

وإيضاحاً في زيادة التمثيل فبعد أن بين الله تعالى حال الكفرة الفجرة، وبين حال المؤمنين البررة قال في سورة هود: (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَقْلًا تَذَكَّرُونَ (24)). فضرب الله تعالى في هذه الآية المثل للكافر بالأعمى والأصم، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير وبين أنهما لا يستويان. وقوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ..) فالأحياء هنا المؤمنون، والأموات الكفار، وجاء هذا المعنى وإيضاحاً في قوله تعالى في سورة الأنعام: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا .. (122)). فقوله تعالى: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا) أي: موت كفر فأحييناه حياة إيمان. فالكافر يعيش في ظلام دامس، ظلام الكفر والجهل والمعاصي، فحين يتوب ويرجع إلى ربه فإنه يحيا بنور العلم والإيمان والطاعة، ويمشي بين الناس في النور، متبصراً في أموره مهتدياً لسبيله، عارفاً للخير مؤثراً له، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وفي غيره.

قال الشيخ السعدي - رحمه الله -: "أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي، ليس بخارج منها قد التبست عليه الطرق وأظلمت عليه المسالك فيحضره الهم والغم والحزن والشقاء. فبهِ اللهُ تعالى العقول بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات".

والجزاء من جنس العمل فالله تعالى في سورة طه (45/نزول) قال: (فَأَمَّا يَا تَيْتَبُكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (126)). فالكافر يحشر يوم القيامة في أول وهلة أعمى وأصم وأبكم على الحقيقة لأنه تعامى عناداً وطغياناً وكفراً عن الحق في الدنيا قال الله تعالى في سورة الإسراء (50/نزول): (وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَحَدَّ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكَمًا وَضُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زُدِّيَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98)).

3/ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ

وفي مطلع سورة الأنعام (55/نزول) قال الله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) ، وفي خلق الله تعالى وجعله الظلمات والنور دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، فليس بين الظلمات والنور مساواة فكيف بهؤلاء الكفار يعدلون به سبحانه سواء، فيسبون شركائهم به سبحانه في العبادة والتعظيم؟! ثم قال الله تعالى في السورة: (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50).

ثم في السورة شنع الله تعالى على اليهود والمشركين الذين قدموا العمى على الهدى واختاروا إخفاء الحق وإعلان الباطل فقال: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُنْدَوْنَهَا وَ يُحْفَوْنَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا.. (92). وهذه الآيات نزلت في قريش وطائفة من اليهود ، وقد كان كتاب الله - التوراة - الذي نزل على موسى نورا وهدى للناس ، يعني أنه يستضاء به في كشف المشكلات ويهتدى به من ظلم الشبهات، لكن أهل الضلال المغضوب عليهم جعلوا من التوراة قراطيس ، أي: قطعاً مكتوبة من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون منها ما يحرفون، ويبدلون ويتأولون ويقولون: هذا من عند الله!!! وقد فضح الله أعمالهم هذه في سورة البقرة فقال: (قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلُ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79).

وبين الله تعالى في الآية أنهم - يعني اليهود - تعلموا من التوراة - الكتاب الأصلي - العلوم الشرعية المفيدة والعقيدة الصحيحة، فإذا سألوا من أنزل هذا الكتاب؟ - يعني التوراة الذي فيه النور والهدى - قل: الله الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق وينجلي مثل الشمس. فإذا ألزموا بهذا الإلزام فاتركهم يخوضوا في الباطل وبلعبوا بما لا فائدة فيه حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

ثم أشار الله تعالى إلى القرآن ووصفه بأنه مبارك ومن بركته أنه مصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة، فأين نور بعد هذا النور؟ فكان من صناعتهم الخسيسة كما رأيت حياكة الباطل، والتليس على الناس، وفي الآية رسالة مهمة للمبتدعة في أمة محمد فعليهم أن يتقوا الله عز وجل ولا يفعلوا فعل من استحق غضب الله تعالى من التلاعب في نصوص كتاب الله تعالى، وأحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم، وذلك بتحريف معانيها خلاف فهم الصحابة والتابعين لهم بإحسان اتباعاً للهوى، فإن هذا النوع من التليس يطمس النور ويوقع الناس في الحيرة والشك. كما حصل في أسلافهم من أمة بني إسرائيل.

وحيلة وكيد هؤلاء المتلاعبين بدين الله ضعيف جداً لأنهم غيبوا رقابة الله عنهم ظانين أن الله ليس بعليم ولا بسميع ولا بصير قال الله تعالى في سورة التوبة يفضح نواياهم الخسيسة: **(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32)).** وقال في سورة الصف: **(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (8)).**

إن الله تعالى لهؤلاء المتلاعبين بكتاب الله وسنة رسوله بالمرصاد، ألا ترى إلى التوراة نوراً وهدى، فإذا تلاعب بها المتلاعبون فطمسوا ما فيها من النور والخير العظيم، بعث الله رسولاً وأنزل كتاباً فكان بعد موسى عيسى عليهما السلام مصدقاً لما بين يديه من التوراة وأتاه الله الإنجيل، وهكذا جاء محمد على فترة من الرسل وبعد أن دخلت الحيرة والشك قلوب الناس واحتاجوا إلى النور من جديد كان القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل وأمة محمد صلى الله عليه وسلم من رحمة الله بها أنه يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد دينه، فيشع النور من جديد.

قال الله تعالى في سورة المائدة: **(إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَإِخْشَاؤِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44)).**

ثم قال الله تعالى: **(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46)).**

وقد نوه الله تعالى لعظم القرآن في مطلع السورة نفسها حاثاً من سبقنا من أهل الكتاب - التوراة والإنجيل - فقال: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)).

4/ نُورٌ عَلَى نُورٍ

وفي سورة الشورى (62/نزول) رد الله تعالى افتراءاتهم الضالة وقال: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ (51) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطٍ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)). قال الشنقيطي - رحمه الله -: والضمير في قوله تعالى: (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا) راجع إلى القرآن العظيم المذكور في قوله: (رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) وقوله: (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ) وعنى هذا: ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نوراً لأنه يضيء الحق ويزيل ظلمات الجهل والشك والشرك. كقوله تعالى في سورة النساء: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174)).

ومن رحمة الله تعالى على أمة محمد الأمة الخاتمة أن الله تعالى أعطاها ما تسترشد به مما وقع في الأمم السابقة لها من الغي والفسق والفجور والكفر واتباع الهوى لتحذر النتائج والعواقب في الدنيا والآخرة، وجعل كتابه القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نور وبرهان، فمن اتبعه خرج من الظلمات إلى النور قال الله تعالى في مطلع سورة إبراهيم (72/نزول): (الرَّكِيكُ نُورًا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1)). ولأن الرسل رحمة من عند الله تعمل على إزالة الظلام والغشاوة وتحل محلها النور والاستقامة، وذلك من خلال التبیین والتصويب والتعريف، التبیین لمراد الله تعالى، والتصويب لما علق في ذهن الناس من تحريفات وأخطاء ومبتدعات وضلالات وخرافات، والتعريف بالخير والتحذير من الشر. فإذا استقام الناس حيث أطاعوا الله والرسول تحصلوا على الخير والنور، وإن عصوا ضلوا وبقوا في الشر والظلام، ولنا كما ذكرنا العبرة من بني إسرائيل لذا قال الله تعالى

في السورة: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (4) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.. (5).

ومحمد صلى الله عليه وسلم مرسل من عند ربه وما فعله موسى مع قومه يفعله محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه قال الله تعالى في سورة الطلاق: (..فَاتَّبِعُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا) (10) رَسُولًا يَنْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.. (11).

وقال الله تعالى في سورة التغابن: (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (8).

والمؤمن من فضل الله عليه ورحمته أنه يخرج من الظلمات إلى النور قال تعالى في سورة البقرة (87/نزول): (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (257).

وقال تعالى في سورة الأحزاب (90/نزول): (بِآيَاتِهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) (43).

قال الله تعالى في سورة النور:

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِيَّةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَيَّ نُورٌ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35) فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رَجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا
 وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ
 حِسَابٍ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
 بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ
 يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ
 وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي
 بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن
 فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا
 أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ
 نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (40).

(27)

إِنَّ هُوَ إِلَّا لََّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ

في سورة القلم (2/ يزول) قال الله تعالى: (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ
 إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51). فسمى الله تعالى القرآن ذكراً. وبين الله
 تعالى في الآية التالية أنه ذكر للعالمين فقال: (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
 لِلْعَالَمِينَ (52) يعني للجن والإنس. ويشهد أنه للجن أيضاً: قوله
 تعالى في سورة الجن: (قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ
 الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1). وقوله تعالى في
 سورة الأحقاف: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ
 الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى
 قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29).

"لقد سمي الله القرآن ذكراً اعتباراً بالمطلوب بالنسبة إليه بعد
 العلم بما جاء فيه، أي: يقدم لمتلقيه في أول تلقيه له علماً، ثم
 على المتلقي أن يجعله في ذكره دواماً، وأن يجدد تذكره عند كل
 مناسبة تستدعي ذلك فهو ذكر للعالمين.

فحين يوصف القرآن في آياته بأنه ذكر للعالمين فعلينا أن نفهم أن
 الواجب بالنسبة إليه أن نعلمه أولاً ثم نذكر ما فيه دواماً، لأن الله
 عز وجل يطالبنا باعتقاد عقائده دواماً والتزام أخلاقه دواماً

وبالعمل بشرائعه دوماً وهذا لا يكون إلا بذكره عند كل مناسبة تستدعي ذكره⁽¹⁾.

وفي سورة المدثر (4/نزول) قال الله تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَحُوصُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَانَتْهُمْ حُمْزٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً (52) .

فقوله تعالى: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَانَتْهُمْ حُمْزٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) تعجب من إعراضهم ونفورهم عن سماع القرآن والحجة ، فشبههم في إعراضهم عن الدعوة والتذكرة بالحرر الفارة من الصيادين أو الأسد، قال ابن عطية - رحمه الله - في المحرر: إثبات لجهالتهم لأن الحر من جاهل الحيوان جداً. انتهى.

كما شبه الله تعالى العالم الغير منتفع بعلمه بالحرار يحمل أسفاراً.

وفي السورة قال الله تعالى: (كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ (56)).
فكرر الردع والزجر على أن هذا القرآن حقاً موعظة بليغة فانتفعوا (وقيد انتفاعهم بمشيئة الله عز وجل) فالباب ما زال مفتوحاً، والفرصة ما زالت متاحة، فالله عز وجل أهل لأن يتقى، أهل لأن يغفر الذنوب.

والناظر المتدبر في آيات الله تعالى يرى أن المكذبين بدين الله تعالى حين تظهر الحجة لا يوجهون الطعن لها، بل يوجهون الطعن للذي أقامها وبينها، لذلك حين سخروا هؤلاء بالنبي صلى الله عليه وسلم وتناولوا على شخصه بقولهم: إنه مجنون، رد الله تعالى افتراءهم في مطلع سورة القلم بقوله: (وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)). قال الشنقيطي - رحمه الله -: وهذا بمثابة الرد على الإدعاء الكاذب

(1) "قواعد التدبر الأمثل" - عبد الرحمن حسن حبنكة - صفحة 245.

للمشركين، لأن أخلاق المجانين مذمومة، بل لا أخلاق لهم، وهنا أقصى مراتب العلو في الخلق.

وفي ختام السورة أيضاً رد الله تعالى ادعائهم ، عود على بدء، فقال: **(وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52))**. وتبين أن المراد بنعمة الله تعالى في أول السورة هو ما أوحاه الله تعالى لنبه من الذكر.

وفي سورة التكويد (7/ نزول) قال الله تعالى: **(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22) وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَئِينٍ (24) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (25) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28))**. أجمع أهل العلم على أن المراد بالقول: هو القرآن. وأما المراد بالرسول الكريم: جبريل عليه السلام بدليل قوله تعالى: **(ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (21) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (22))**. فصاحبكم هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي صحبهم منذ ولادته.

قال ابن كثير - رحمه الله -: وقوله تعالى: **(أَمِينٍ)** صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جداً أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله: **(وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ)**.

وبعد بيان قوة السند وتزكية الله تعالى لعبده الملكي والبشري قال تعالى محذراً من ذراً: **(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28))**. فما على العبد بعد الذكر إلا أن يستقيم على سبيل الحق فيتبعه.

ووصف صاحب الحق بالجنون ، والكهانة ، والشعر سنة المكذبين مع أهل الحق منذ نوح ، قال الله تعالى في سورة القمر: **(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9))**.

فهذا سمت أهل الباطل يزعمون أن ما هم عليه من الباطل والشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، وقد زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى وهكذا فعل أعداء الرسل.

ولما كانت هذه الأذية شنيعة في حق الأنبياء والرسل وأتباعهم مستمرة إلى قيام الساعة، فقد أمر الله تعالى نبيه وأتباعه

بالاستمرار في التذكير ولو استمر وصف الأعداء لهم بالجنون والكهانة والشعر فقال مدافعاً نافياً عن نبيه هذه الصفات في سورة الطور: **(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَثُونِ (30)).**

وقد أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إمام أهل الذكر، أن يذكر الناس ويكرر الذكرى عند مظنة النفع تكريماً تقوم به حجة الله على خلقه فقال في سورة الأعلى وهي التالية للتكوير في النزول (87/مصحف، 8/نزول): **(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9)).** وقال في سورة ق (50/مصحف، 34/نزول): **(..فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدَ (45)).**

وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه واضح جلي لمن تأمله وتدبره فقال في سورة يس (36/مصحف، 41/نزول): **(..إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70)).**

ولما استمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتذكير بالقرآن والسنة، ازداد أهل الإيمان والتقوى إيماناً وتقوى، وازداد الكفار ضللاً وغيماً وكانوا قوماً حمقى، ولما نصعت الحجة زاد الكفار من بغضهم للنبي صلى الله عليه وسلم وزادت عداوتهم له، ويبدو - والله أعلم - أنهم حين كانوا يصفونه صلى الله عليه وسلم بالجنون حين سمعوا منه القرآن لأول مرة كان الوصف محصوراً عليهم كما هو في سورة القلم، لكنهم أخيراً حين طفح غيظهم أسفروا عن عداوتهم وانطلقوا في هذه العداوة الشديدة للنبي صلى الله عليه وسلم معلنين مجاهرين واصفين محمد صلى الله عليه وسلم بالجنون كما ذكر الله عز وجل في سورة الحجر (15/مصحف، 54/نزول): **(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6)).**

قال الشنقيطي: قد يقال في هذه الآية الكريمة كيف يقرون بأنه أنزل إليه الذكر وينسبونه للجنون مع ذلك؟ والجواب أن قولهم **(يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ)** يعنون في زعمه تهكماً منهم به. ويوضح هذا المعنى ورود مثله من الكفار متهمين بالرسول عليهم صلوات الله وسلامه في مواضع آخر كقوله في سورة الشعراء عن فرعون مع موسى: **(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27)).** أ.هـ.

ولما بلغت السخرية فيهم هذا الحد قال الله تعالى في السورة -
 يعني سورة الحجر - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (9).
 ففي الآية رد على الكفار أن ما أوحاه الله تعالى لمحمد صلى
 الله عليه وسلم من الذكر الحكيم نعمة عظيمة وإنه سبحانه
 وتعالى يحفظها.

وختم الله تعالى السورة بقوله:
**(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (87) لَا
 تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ
 عَلَيْهِمْ وَارْحَمِمْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا
 الْبَشِيرُ وَالنَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ (90)
 الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرِّكْ لِنَسْأَلَنَّهُمْ
 أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ
 وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95)
 الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)
 وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ
 بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ
 يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99).**

(28)

من هم الأخسرون؟! !!

**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ
 تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**

قال الله تعالى في سورة النازعات ينقل كلام الأخرسين:
**يَقُولُونَ إِنَّا لَمَزْدُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ (10) أَيُّدَا كُنَّا عِظَامًا
 نَجْرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّهْتَ خَاسِرَةٌ (12).**

حصر الله تعالى الخسارة في الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم
 القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل فقال تعالى في
 سورة النمل: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ
**أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
 وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (5).**

وقال تعالى في سورة هود: (يَقُولُ الْأَشْقَاءُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَنبُغُونَهَا عَوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (19) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (22).

لماذا هؤلاء الأخسرون ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون مع أن لهم أسماعاً وأبصاراً؟!!

الجواب الأول واختاره ابن جرير الطبري - رحمه الله - ونقله عن ابن عباس وقتادة: أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحق سماع منتفع، ولا أن يبصروه إبصار مهتد، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين؛ عن استعمال جوارحهم في طاعة الله، وقد كانت لهم أسماع وأبصار. وبديل لهذا قول الله تعالى في سورة الأحقاف: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفِيدَةً فَمَا أَعْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفِيدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ.. (26).

الجواب الثاني واختاره الشنقيطي - رحمه الله - واستظهره وهو أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآية إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم، والغشاوة التي جعل الله على أبصارهم ويشهد لهذا القول قول الله تعالى في سورة البقرة: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ.. (7). وقوله في سورة الكهف: (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا.. (57).

وذلك الختم والأكنة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيتهم كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله في سورة النساء: (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ.. (155). وقوله في سورة الصف: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ.. (5). وقوله في البقرة: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا.. (10). وقوله تعالى في سورة التوبة: (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ.. (125). وقوله تعالى في سورة الأنعام: (وَنُقِلَبٌ أَفِيدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰ مَرَّةً.. (110).

الجواب الثالث: أن المعنى ما كانوا يستطيعون السمع أي لشدة كراهيتهم لكلام الرسل على عادة العرب في قولهم: لا أستطيع أن أسمع كذا إذا كان شديد الكراهية والبغض له ويشهد لهذا القول

قوله تعالى في سورة فصلت: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ بَتَلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا..(27). وقوله تعالى في سورة نوح: (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) (7). وقوله تعالى في سورة فصلت: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ(26)). قلت: وقد جاء في السنة التحذير من عدم الانصياع لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم بحجة عدم الاستطاعة فإن هذا يفضي إلى خطر عظيم فقد أخرج مسلم في "صحيحه"، وأحمد، عن إِبَاسُ بْنُ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشِمَالِهِ فَقَالَ: كُلْ بِيَمِينِكَ، قَالَ: لَا اسْتَطِيعُ قَالَ لَا اسْتَطَعْتُ مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ قَالَ فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ.

قال النووي في شرح مسلم: "فإن مجرد الكبر والمخالفة لا يقتضي النفاق والكفر، لكنه معصية إن كان الأمر أمر إيجاب". ومثلهما جاء في ترك الجماعة والجمعة، فعن الْحَكَمُ بْنُ مِيثَانَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عَلَى أَعْوَادٍ مِثْرِهِ: "لَيْتَيْهِنَّ أَقْوَامٌ عَنِ وُدِّهِمْ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيْخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لِيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ".

أخرجه مسلم، وابن ماجه، والنسائي، وأحمد، وابن خزيمة، والدارمي وغيرهم.

وعن أبي الجعد الضمري - وكانت له صحبة رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ".

أي: لقلة الاهتمام بأمرها، لا استخفافاً بها؛ لأن الاستخفاف بفرائض الله تعالى كفر وردة؛ لأنه كفر قلبي. وَعَنْ حَارِثَةَ بْنِ النَّعْمَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَتَّخِذُ أَحَدُكُمْ السَّائِمَةَ فَيَشْهَدُ الصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَتَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ سَائِمَتُهُ فَيَقُولُ لَوْ طَلَبْتُ لِسَائِمَتِي مَكَانًا هُوَ أَكْلًا مِنْ هَذَا فَتَيَحْوُلُ وَلَا يَشْهَدُ إِلَّا الْجُمُعَةَ فَتَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ سَائِمَتُهُ فَيَقُولُ لَوْ طَلَبْتُ لِسَائِمَتِي مَكَانًا هُوَ أَكْلًا مِنْ هَذَا فَتَيَحْوُلُ فَلَا يَشْهَدُ الْجُمُعَةَ وَلَا الْجَمَاعَةَ فَيُطَبَعُ عَلَى قَلْبِهِ".

الجواب الرابع: أن الله تعالى شبههم بالحجارة لا تسمع ولا تبصر فقوله تعالى: (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا

يُبْصِرُونَ) وهي صفة الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في سورة الأعراف: **(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا..(195).**

لذلك فهؤلاء الأخسرون حين عطلوا حواسهم المهمة: السمع والبصر، عن الانتفاع بها في سماع كلام الله تعالى والعمل بمقتضاه، والتبصر بما في كتابه عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يختم على قلوبهم ويكونوا أعظم الناس يوم القيامة خسارة. **ولعدة أسباب منها:**

1/ أنهم اتخذوا الشيطان ولياً وقد نهى الله عن ذلك ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة النساء: **(..وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا(119).** وقوله تعالى في سورة المجادلة: **(اسْتَجُودَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ(19).**

2/ الشرك بالله تعالى وقد نهى الله عنه ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة الزمر: **(..لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(65).**

3/ النفاق والذي من علاماته: نقض العهد الذي بينه وبين الله تعالى، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، والإفساد في الأرض، ويشهد له قوله تعالى في سورة البقرة: **(الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(27).**

4/ الكفر بكتاب الله تعالى وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ويشهد له قول الله تعالى في سورة البقرة: **(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(121).**

5/ الاعتقاد بدين غير دين الإسلام ويشهد له قوله تعالى في سورة آل عمران: **(وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(85).**

6/ طاعة الكفار ومموالاتهم ويشهد له قوله تعالى في سورة آل عمران: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ(149).**

7/ الأمن من مكر الله تعالى ويشهد له قوله تعالى في سورة الأعراف: **(أَقَامُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ(99).**

8/ الكفر بالله تعالى وما يجب الإيمان به من كتبه ورساله أو شيء من الشرائع فقد حبط عمله بشرط أن يموت على كفره ، ويشهد له قوله تعالى في سورة المائدة: **(وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5)).**

وأعلم أخي الداعي إلى الله على بصيرة أن هذا بعد إقامة الحجة وبيان الدليل، ويشهد لهذا قوله تعالى في سورة الأعراف: **(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (100)).** قال الشيخ السعدي - رحمه الله -: أي إذا نبههم الله فلم ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى يختم عليها فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم.

قال كاتب هذا المقال - عفا الله عنه - فإذا جاء الختم - عافانا الله منه وامتعنا بأسماعنا وأبصارنا - أصبح صاحبه يرى المنكر حقاً والمعروف باطلاً، ويحسب أنه يحسن صنعاً ويشهد له قول الله تعالى في سورة الكهف: **(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) (103) الَّذِينَ صَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا أَيُّهَا رَبُّهُمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُرُوقًا (106)).**

9/ اتباع الهوى المخرج صاحبه من الهدى: ويشهد له قول الله تعالى في سورة المائدة: **(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (70) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (71)).**

قال ابن كثير - رحمه الله -: وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب وهو أنهم عموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه. وقوله تعالى في سورة الجاثية: **(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)).**

وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا

يقول الله تعالى في سورة التغابن:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ
وَأَوْلَادِكُمْ وَعَدُوِّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ
وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ
وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ (15) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا
اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا
وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ
شَحْخَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16).

(29)

معني قوله تعالى: (عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ)

في الوقت الذي وصف الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه على خلق عظيم، وصف المكذبين بعكس ذلك: من كذب، ومداهنة، وكثرة حلف، ومهانة وهمز، ومشى بنميمة، ومنع للخير، وعتل وتجبر، واعتداء، وظلم، وانقطاع زعيم، عشر خصال ذميمة ونتيجتها الوسم بالخزي على الأنوف صغاراً لهم.
فقال تعالى:

(فَلَا تُطِيعُ الْمُكَدِّبِينَ (8) وَذُؤَا لَوْ تُذْهِنُ فَيَذْهَبُونَ (9) وَلَا تُطِيعُ كُلَّ خَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ (11) مَنَاعٌ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ (13).
 فقوله تعالى: (عتلٌ بعد ذلك زنيم) عتل: أي جاف غليظ قاسي القلب عديم الفهم.
 وقال الكلبي والفراء فيما نقله القرطبي في الجامع: وهو الشديد الخصومة بالباطل.
 وقال أبو عبيدة ونقله ابن حجر في الفتح (8/663) العتل: اللفظ الشديد من كل شيء.
 وفي الصحيحين (البخاري - الفتح 4918) و (مسلم - بشرح النووي 17/187) من حديث حارثة بن وهب الخزاعي أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: **ألا أخبركم بأهل الجنة.**
قالوا: بلى. قال صلى الله عليه وسلم: كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره. ثم قال: ألا أخبركم بأهل النار. قالوا: بلى. قال: كل جواظ مستكبر -
وفي رواية - كل جواظ زنيم متكبر.

التفسير الصحيح لقوله تعالى: (زنيم)

أخرج البخاري في صحيحه - كتاب التفسير - باب عتل بعد ذلك زنيم (الفتح - 8/663): عن مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - (عتل بعد ذلك زنيم) قال: رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة.

قلت: وليس المقصود بهذا وصفه بسوء الخلقة لأن هذا ليس مما يعاب عليه الإنسان حيث أنه ليس مما يختاره لنفسه. وإنما وصف بذلك ليعرف.

فقد أخرج ابن جرير الطبري في الجامع (29/26) بسند صحيح عن ابن عباس أنه قال في الزنيم: نعت فلم يعرف حتى قيل زنيم، قال: وكانت له زنمة في عنقه يعرف بها.

التفسير الخطأ لقوله تعالى: (زنيم)

وما أخرجه ابن جرير في التفسير (29/26) والحاكم في المستدرک (2/499) كلاهما من طريق أبي إسحاق عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس في قوله تعالى (عتل بعد ذلك زنيم).
 ففي رواية ابن جرير: أن ابن عباس قال في الزنيم: الذي يعرف بأبنة: يعني يعرف بعيب في حسبه. قال ابن منظور: والأبنة: العيب الذي في الخشب والعود وأصله من ذلك، يقال: ليس في حسب فلان أبنة كقولك ليس فيه وصمة.

وفي رواية الحاكم قال ابن عباس: يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزمنتها.

قال البخاري (كما في علل الترمذي الكبير رقم 427 الجزء 2/963): لا أعرف لأبي إسحاق سماعاً من سعيد بن جبير.
قلت: فالإسناد منقطع، فقول الحاكم هذا حديث صحيح وموافقة الذهبي له ليس بصحيح.

(30)

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتُ الذِّكْرَى

قال تعالى في سورة الأعلى:

(فذكر ان نفعت الذكرى (9)) سيدكر من يخشى (10)
(ويتجنبها الأشقى (11)) الذي يصلى النار الكبرى (12)
(ثم لا يموت فيها ولا يحيا (13)).

إشارات النص:

أولاً: مفاسد المكذبين وصفاتهم

الأصرار على تجنب قبول الذكر واختيار طريق الشر.
لقد سمى الله القرآن ذكراً اعتباراً بالمطلوب بالنسبة إليه بعد العلم بما جاء فيه، أي: يقدم لمتلقيه في أول تلقيه له علماً ثم على المتلقي أن يجعله في ذكره دواماً، وأن يجدد تذكره عند كل مناسبة تستدعي ذلك فهو ذكر للعالمين.
فحين يوصف القرآن في آياته بأنه ذكر للعالمين، فعلينا أن نفهم أن الواجب بالنسبة إليه أن نعلمه أولاً ثم نذكر ما فيه دواماً، لأن الله عز وجل يطالبنا باعتقاد عقائده دواماً، والتزام أخلاقه دواماً، وبالعامل بشرائعه دواماً وهذا لا يكون إلا بذكره دواماً عند كل مناسبة تستدعي ذكره.

فقوله تعالى: (ويتجنبها الأشقى)

قال قتادة فيما أخرجه ابن جرير بإسناد حسن: فلا والله لا يتنكب عبد هذا الذكر زهداً فيه وبغضاً لأهله إلا شقي بين الشقاء.

وقال الشيخ برهان الدين البقاعي في النظم (21/399):
قوله (ويتجنبها) أي يكلف نفسه وفطرته الأولى المستقيمة
تجنب الذكرى التي نشأ تذكيره بها من أشرف الخلائق

وأعظمهم وصلة بالخالق . ولما كان هذا الذي يعالج نفسه على العوج شديد العتو قال (الأشقى) .

ثانياً: معالجات رب العالمين :

(1) تكرر الذكرى عند مظنة النفع تكررًا تقوم به حجة الله على خلقه .

(فذكر إن نفعت الذكرى)

قال الحسن البصري : تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر. وقال ابن تيمية :

فقوله تعالى : (إن نفعت الذكرى) لا يمنع كون الكافر يبلغ القرآن لأنه لم يخص قوماً دون قوم . لكن قال (فذكر) وهذا مطلق بتذكير كل أحد. وقوله (إن نفعت الذكرى) لم يقل (إن نفعت كل أحد) بل أطلق النفع فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع.

والتذكير المطلق العام ينفع، فإن من الناس من يتذكر فينتفع به والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك فيكون عبرة لغيره فيحصل بتذكيره نفع أيضاً . ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهد وغيره فتحصل بالذكرى منفعة .

فكل تذكير ذكر به النبي صلى الله عليه وسلم المشركين حصل به نفع في الجملة، وإن كان النفع للمؤمنين الذين قبلوه واعتبروا به وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة .أ.هـ

وقال الشنقيطي : ويفهم من هذه الآية الكريمة أن التذكير لا يطلب إلا عند مظنة نفعه بدليل أن الشرطية، وأنه صلى الله عليه وسلم بعد أن يكرر الذكرى تكررًا تقوم به حجة الله على خلقه، مأمور بالتذكير عند ظن الفائدة، أما إذا علم الفائدة فلا يؤمر بشيء هو عالم انه لا فائدة فيه لأن العاقل لا يسعى الى ما لا فائدة فيه .

وبيان ذلك انه تارة يعلمه بإعلام الله به كما وقع في أبي لهب حيث قال الله تعالى(سيصلى نارا ذات لهب وامرأته.....) الآية .

فأبو لهب هذا وامرأته لا تنفع فيهما الذكرى، لأن القرآن نزل بأنهما من أهل النار بعد تكرار التذكير لهما تكررًا تقوم عليهما به الحجة فلا يلزم النبي صلى الله عليه وسلم علمه بذلك أن يذكرهما بشيء لقوله تعالى: (فذكر إن نفعت الذكرى) .

وتارة يعلم ذلك بقريئة الحال بحيث يبلغ على أكمل وجه، ويأت بالمعجزات الواضحة فيعلم أن بعض الأشخاص عالم بصحة نبوته وأنه مصر على الكفر عنادا ولجاجا، فمثل هذا لا يجب تكرر الذكرى له دائما بعد أن تكرر عليه تكررًا تلزمه به الحجة.

وحاصل ايضاح هذا الجواب ان الذكرى تشتمل على ثلاث حكم :

(1) خروج فاعلها من عهدة الأمر بها .

(2) رجاء النفع لمن يوعظ بها.

(3) إقامة الحجة على الخلق.

فالنبي صلى الله عليه وسلم اذا كرر الذكرى حصلت الحكمة الأولى والثالثة، فان كان في الثانية طمع واستمر على التذكير وإلا لم يكلف بالدوام، والعلم عند الله تعالى .

وقال ابن كثير : قوله تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى) اي ذكر حيث تنفع التذكرة ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعه عند غير أهله .

(2) ذكر الله تعالى مبدأ السعادة أولا حثا عليه ومآل الشقاوة ثانيا تحذيرا منه .

(سيذكر من يخشى) (ويتجنبها الأشقى) (الذي يصلى النار الكبرى) (ثم لا يموت فيها ولا يحيا) .

فآيات النص من الاحتباك أن الله تعالى ذكر الثمرة في الأول وهي الخشية دليلا على حذف ضدها من الثاني وهي القسوة الناشئة على الحكم بالشقاوة، وذكر الأصل والسبب في الثاني وهو الشقاوة دليلا على حذف ضده في الأول وهو السعادة، فالإسعاد سبب والخشية ثمرة، والإشقاء سبب والقساوة ثمرة ومسبب .

قال الملوي فيما نقله البقاعي في نظم الدرر (21/400):

ولا شك أن القرآن العظيم على أحسن ما يكون من البراعة في التركيب وبداعه الترتيب وكثرة العلوم مع الاختصار وعدم التكرار . فيكتفي في موضع بالثمرة بلا سبب، وفي آخر بالسبب بلا ثمرة لدلالة الأول على الثاني والثاني على الأول فيضم السبب إلى الثمرة والثمرة إلى السبب .

أخرج مسلم في "صحيحه" وابو عوانة ، والدارمي، وابن ماجه، وأحمد ، والطبري في التفسير ، عن أبي سعيد الخدري مرفوعا:

(أما أهل النار الذين هم أهلها) وفي رواية : الذين لا يريد الله عز وجل إخراجهم) فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس

أصابتهم النار بذنوبهم (يريد الله عز وجل إخراجهم) فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما، أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر

ضبائر ، فبثوا على انهار الجنة، ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل.

وقد قال الله تعالى أخبارا عن أهل النار :

(ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال أنكم ماكتون) الزخرف
الآية 77 وقال (لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من
عذابها) فاطر الآية 36.

(31) سورة المسد

قال تعالى:

(**تبت يدا ابي لهب وتب**) _ يعني عبد العزى بن عبد المطلب
وكان يكنى أبا لهب -

(**ما أغنى عنه ماله وما كسب**)

(**سيصلى نارا ذات لهب**)

(**وامراته حمالة الحطب**) _ يعني أروى بنت حرب بن أمية (أخت
ابي سفيان) -

(**في جدها جبل من مسد**) الآيات 1 - 5

إشارات النص :

أولاً: سب نزول النص :

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه
وسلم خرج إلى البطحاء ، فصعد إلى الجبل فنادى:

يا صباحاه ، فاجتمعت قريش فقال : أرايتم ان حدثتكم ان العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا: نعم ، قال: فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال ابو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبا لك، فأنزل الله عز وجل:

(تبت يدا أبي لهب وتب) إلى آخرها .

الحديث أخرجه البخاري في "صحيحه" (الفتح 8/736/رقم 4972) واللفظ له ، ومسلم (356 كتاب الأيمان باب 89) عن ابن عباس قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم الصفا فقال: يا صباحاه ... بنحو الذي أخرجه البخاري والترمذي (3363) باب - ومن سورة تبت يدا أبي لهب - وقال: هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد (1/281) والبيهقي في "دلائل النبوة" (2/182) والنسائي في التفسير (رقم 734) وابن جرير في التفسير (15/30/336).

ثانيا: مفاسد المكذبين وصفاتهم

(17) التصدي للدعوة بالشتيمة والأذى الوقحين .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فيما أخرجه البخاري (الفتح 8/738/رقم 4973) قال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب) ... السورة .

(18) المشي بالنميمة لإثارة العداوة والشحناء .

فبعد قوله تعالى في النص الثاني من سورة القلم: (هماز مشاء بنميم) وصف هنا زوجة ابي لهب - وكانت من سادات نساء قريش وهي ام جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده - (حمالة الحطب) - استعارة مشهورة - .

قال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه : الحطب : النميمة وكانت تتم وتؤرش بين الناس . وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، عن قتادة باسناد حسن قال: كانت تحطب الكلام ، تمشي بالنميمة. وقال مجاهد: حمالة الحطب تمشي بالنميمة ، أخرجه الفريابي ، وابن جرير. وأخرج سعيد بن منصور من طريق محمد بن سيرين قال: كانت امرأة ابي لهب تتم على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المشركين . وقال الفراء: كانت تتم فتحرش فتوقد بينهم العداوة فكنى عن ذلك بحملها الحطب. وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (صفحة 160) : ومن هذا قيل (فلان يحطب علي) اذا أغرى به ، شبهوا النميمة بالحطب، والعداوة بالشحناء بالنار لأنهما يقعان بالنميمة كما

تلتهب النار بالحطب. ويقال: نار الحقد لا تخبو ، فاستعاروا الحطب في موضع النميمة .

ثالثا معالجات رب العالمين :

(1) تلقين المكذبين درسا بإخبارهم عن المصير الذي سوف يلقاه أبو لهب في الدنيا والآخرة لتصديه للدعوة وشدة أذاه للنبي صلى الله عليه وسلم .

(تبت يدا أبي لهب وتب) قال ابن كثير: قوله تعالى: (تبت يدا أبي لهب) أي خسر وخاب وضل عمله وسعيه (وتب) أي: قد تب تحقق خسارته وهلاكه .

واسناد التبت لليدين كان من باب اطلاق البعض وإرادة الكل كما قال الشنقيطي، وهو كقوله تعالى(ناصية كاذبة) مع أن الكاذب هو صاحبها .

فلما كان الكذب يسود الوجه، ويذل الناصية، وعكسه الصدق يبيض الوجه، ويعز الناصية، أسند الكذب إلى الناصية لزيادة اختصاصها بالكذب عن اليد مثلا.

ولما كان الهلاك والخسران غالبا بما تكسبه الجوارح واليد اختصاصا في ذلك أسند إليها التبت .

(2) التصغير والتحقير بقوله (ابي لهب) بكنيته، فلم يرد به التكريم، بل أراد به التشهير، فهو أول من سماه من كفار قريش وقرنه بوصف النار أعاذني الله واياكم منها .

(تبت يدا أبي لهب وتب) (ما أغنى عنه ماله وما كسب) (سيصلى نارا ذات لهب)

قال الخازن (4/317): فان قلت : لم كناه وفي التكنية تشرية وتكرمه ؟ فالجواب من وجوه :

أحدها : انه كان مشتهرا بالكنية دون الاسم، فلو ذكره باسمه لم يعرف .

الثاني: أنه كان اسمه (عبد العزى) فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشرك - لأن العزى صنم فلم تضاف العبودية الى صنم - .

الثالث : أنه لما كان من أهل النار والنار ذات لهب، وافقت حال كنيته وكان جديرا بها أن يذكر بها .

وقال القرطبي في الجامع (20/161): وقد قيل : اسمه كنيته، فكان أهله يسمونه (أبا لهب) لتلهب وجهه وحسنه فصرفهم الله

عن أن يقولوا : أبو النور وأبو الضياء الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى ألسنتهم أن يضيفوه إلى (لهب)

الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم وهو النار ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقره.

(3) الذم والتقيح بقوله (تبت __ وتب) وإنذارا للمكذبين أمثاله .

فقوله تعالى (تبت يدا أبي لهب) كانت إنشاء للدعاء عليه، محمولة على الذم والتقيح، ثم جاء (وتب) لبيان انه واقع به لا محالة وانه ممن حقت عليهم كلمات ربك لبيأس صلى الله عليه وسلم والمسلمون من إسلامه وتنقطع الملاطفة معه.

(4) الايذان بالخط من كبرياء المكذبين وتسويد وجوههم وان تكون عاقبتهم كأبي لهب .

(ما أغنى عنه ماله وما كسب) (سيصلى نارا ذات لهب) .
فبعد قوله تعالى في النص الثاني من سورة القلم: (أن كان ذا مال وبنين) (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) وكان ذلك على الذم والتقريع للمكذبين. قال في النص السادس من سورة المدثر: (وجعلت له مالا ممدودا) (وبنين شهودا) (ومهدت له تمهيدا) (ثم يطمع أن أزيد) (كلا انه كان لآياتنا عنيدا) وكان ذلك في سياق المعالجة للاعتبار، لذا قال هنا في حق أبي لهب الذي لم يعتبر:

(ما أغنى عنه ماله) (وما كسب) يعني ولده، قاله ابن عباس وروي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله .

(5) تخصيص امرأة ابي لهب بالذم لأتصافها أيضا بخلق ذميم ألا وهو النم . وقال صلى الله عليه وسلم (كفى بالمرء اثما ان يحدث بكل ما سمع) وفي رواية كفى بالمرء كذبا ..¹

(وامرأته حمالة الحطب) وقد ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد عن طاوس عن ابن عباس قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال : "إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبيرأما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة". الحديث أخرجه بقية الجماعة في كتبهم من طرق عن مجاهد به.

وفي الصحيحين عن حذيفة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة نمام) قال الحافظ ابن حجر : قوله (لا يدخل الجنة) أي في أول وهلة كما في نظائره .

وروى مسلم في " صحيحه " عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ألا أنبئكم ما العضة ؟ هي النميمة ، القالة بين الناس .

¹ السلسلة الصحيحة (2025) .

وأخرج البخاري في "الأدب المفرد" والطحاوي في "المشكّل" والبيهقي في "السنن" وحسنه شيخنا في "الصحيحة" رقم (845) عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أتدرون ما العضة؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: نقل الحديث من بعض الناس إلى بعض ليفسدوا بينهم .

(6) تلقين المكذبين درسا آخر بإخبارهم أيضا عن المصير الذي سوف تلقاه امرأة أبي لهب في الدنيا والآخرة لتصديها للدعوة وشدة أذاها للنبي صلى الله عليه وسلم .

(وأمراته حمالة الحطب) (في جيدها حبل من مسد) وأبو لهب وأمراته من الأقربين ولو تركا لتجراً غيرهما بأشد مما فعلاه ، قال الشيخ عبد الرحمن حبنكة في "القواعد" (صفحة 55):

فأنزل الله بهما قرآنا يتلى أخرس بذلك كل من كانت تحدته نفسه بأن يفعل مثلهما، وكل من ستحدته نفسه بمثل ذلك في المستقبل، إذ كان العربي يخشى من كلمة ذم سائرة فيه أكثر من خشيته من القتل.أ.هـ.

فالسورة بهذا الدرس الملقن مقصودها: البت ، والقطع ، والحتم بخسران الكافر ولو كان أقرب الخلق إلى أعظم الفائزين. وهي أي السورة مع ما تقدمها واتصل بها يعني (سورة النصر) في قوة ، فسورة النصر آخر سورة نزلت جميعا قاله ابن عباس في صحيح مسلم، ولما تقدم الإعلان بالنصر للنبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى ناسب أن يأتي إعلان بإهلاك أعدائه ومناوئيه وحساده وشائئيه ولو كان من أقرب الناس إليه.

قلت : وجاءت سورة النصر والمسد بعد أن فصلت سورة (قل يا أيها الكافرون) بين الأولياء والأعداء، وكان مقصودها الأعظم، البراءة من الشرك والمشركين وان كانوا أقرب الناس، ليعلم كفار قريش وغيرهم انه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان، وأن القربات غير نافعة ولا تجديه شيئا الا مع الإيمان، وان النصر لأهل الإيمان الذين يحققون الولاية لله والبراءة من أعدائه، وان الهزيمة والهلاك لأهل الكفر الذين يعادون الله ورسوله والمؤمنين.

واتصلت سورة الإخلاص التالية للمسد بقل يا أيها الكافرون في المعنى ولهذا قيل من أسمائها أيضا الإخلاص، اذن فمدار الصراع القائم في الدنيا ومقصودنا الصراع بين الإيمان والكفر نتائجه إما نصر أو هزيمة وهلاك ويتوقف مدار النصر على مدى تحقيق مفهوم الولاء والبراء والله اعلم .

إذ انه لا يستقيم إيمان عبد إلا اذا حقق بإخلاص في القول والعمل مفهوم الولاء والبراء، الذي جمعه كلمة لا اله إلا الله وفصلته سورتين في ذكرهما ثواب عظيم ألا وهما سورة قل يا ايها الكافرون وسورة قل هو الله أحد.

ويضاف إلى ذلك أن كثيرا من المذنبين يخلون من مفهوم الولاء والبراء يميلون إلى خلق ذميمة الا وهو (أن يكونوا حمالي حطب) يعني القالة بين الناس ، لأنهم لا يحسبون حساب من يوالون ومن يعادون وإذا وقعوا في مأزق فان أول مخرج لهم منه هو مصلحتهم الذاتية فحسب ولو على حساب الدين فيكونون ممن ينطبق عليهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) وهو في الصحيحين عن أبي هريرة . وعن عمار فيما أخرجه أبو داود وصححه شيخنا (الصحيحة رقم 892) : (من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار).

(32)

وحدة الصف من تسوية الصف

أَمَرَ النبي صلى الله عليه وسلم بتسوية الصفوف

أخرج الإمام مسلم في " صحيحه "، وأحمد في " المسند "، والنسائي، وغيرهم عن أبي مسعود - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: " استووا ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم ". وأخرج الإمام أحمد في " مسنده "، وابن حبان، وهو في " صحيح الجامع " (193) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحسنوا إقامة الصفوف في الصلاة".

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديثين يفيد الوجوب، وقوله في الحديث الأول: "ولا تختلفوا" يفيد النهي، والنهي يفيد التحريم. وقد اجتمع في الحديث الأمر والنهي معاً، فكان كل منهما قرينة مؤكدة للآخر.

ومن الأدلة على وجوب التسوية وإقامة الصفوف، أفعال كثيرة وردت في النصوص بصيغة الأمر: "أحسنوا إقامة الصفوف". "سووا صفوفكم". "أقيموا صفوفكم". "رصوا صفوفكم". إلى غير ذلك من النصوص.

ومن الأفعال التي اقترنت بلام الأمر: "لتقيمن صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم". "لتسون صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم".

ومن الأدلة على وجوب التسوية وإقامة الصف، ورود لا الناهية في بعض الأحاديث، والنهي يفيد التحريم إلا لقرينة تصرفه، والقرائن جاءت مؤكدة لا صارفة، كقوله صلى الله عليه وسلم: "ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم". وإلى غير ذلك من الأدلة الدالة على الوجوب كما سيأتي معنا - إن شاء الله تعالى -.

التحذير من عاقبة عدم إقامة الصف

ففي الوقت الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسوية الصفوف، ونهى عن الاختلاف فيها؛ بأن يحسن المصلون إقامتها، حذر من التهاون بذلك، ومن عدم الائتثار بأمره، فقد أخرج أبو داود، وابن حبان في "صحيحه" وهو في "صحيح الترغيب والترهيب" (512) عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس بوجهه فقال: "أقيموا صفوفكم، أو ليخالفن الله بين قلوبكم". قال: فرأيت الرجل يلزق منكبه بمنكب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، وكعبه بكعبه.

وقد علق شيخنا الألباني - رحمه الله - على هذا القول في "صحيح الترغيب والترهيب" بقوله: "هذا فعل السلف، وأما الخلف فأهملوه إلا من شاء الله تعالى".

وفي رواية أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن النعمان أنه قال:

"إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسوّي صفوفنا، حتى كأنما يسوّي بها القداح، حتى رأى أياً قد عقلنا عنه، ثم خرج يوماً فقام حتى كاد يكبر، فرأى رجلاً بادياً صدره من الصف، فقال: "عباد الله! لتسؤون صفوفكم، أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم". ولأهمية تسوية الصفوف فقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم وأقسم - وهو الصادق المصدوق - على بيان خطورة مخالفتها فقال في رواية أخرجه أبو داود عن النعمان أيضاً: "أقيموا صفوفكم، فوالله لتقيمنَّ صفوفكم، أو ليخالفنَّ الله بين قلوبكم".

وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن خزيمة، وابن حبان في "صحيحه" وهو في "صحيح الترغيب والترهيب" (513) عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله يأتينا فيمسح عواتقنا وصدورنا، ويقول: "لا تختلف صفوفكم، فتختلف قلوبكم".

قال الإمام النووي في "شرح مسلم" يشرح قول النبي صلى الله عليه وسلم:

معناه: يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب، كما تقول: تغير وجه فلان علي: أي أظهر لي من وجهه كراهية، لأن مخالفتهم في الصفوف، مخالفة في ظواهرهم، واختلاف الظواهر، سبب لاختلاف البواطن".

وقال ابن حجر في "الفتح" (2/210):

"وفيه من اللطائف وقوع الوعيد من جنس الجناية وهي المخالفة، وعلى هذا فهو واجب، والتفريط فيه حرام".

السواري تقطع الصفوف؛ لذا جاء المنع من الاصطفاق بينها

أخرج ابن ماجه، والطيالسي، وابن خزيمة، وابن حبان، والطبراني في "المعجم الكبير"، والحاكم، والبيهقي، وغيرهم، بإسناد لا بأس به في الشواهد، وأورده شيخنا الألباني - رحمه الله - في "الصحيحة" (335) عن قرّة بن إياس المزني، قال: "كنا ننهي أن نصف بين السواري على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونطرد عنها طرداً".

وله شاهد من حديث أنس بن مالك رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن أبي شيبة، وغيرهم بسند صحيح عن عبد الحميد بن محمود قال:

"صليت مع أنس بن مالك يوم الجمعة، فدفعنا إلى السواري فتقدمنا وتأخرنا، فقال أنس: كنا نتقي هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم".

قال شيخنا الألباني - رحمه الله -:
"وهذا الحديث نص صريح في ترك الصف بين السواري، وأن
الواجب أن يتقدم أو يتأخر. وقد روى ابن القاسم في "المدونة"
(1/106)، والبيهقي (3/104) من طريق أبي إسحاق عن
معدى كرب عن ابن مسعود أنه قال:
"لا تصفوا بين السواري".
وقال البيهقي: "وهذا - والله أعلم - لأن الاسطوانة تحول بينهم
وبين وصل الصف". أ.هـ.
وأخرج ابن أبي شيبة في "المصنف" بسند صحيح عن إبراهيم
التميمي أنه قال:

"لا تصلوا بين الأساطين" وقال: "أتموا الصفوف".
قال شيخنا الألباني - رحمه الله -:
"وفي حكم السارية، المنبر الطويل ذي الدرجات الكثيرة، فإنه
يقطع الصف الأول، وتارة الثاني أيضاً، قال الغزالي في
"الإحياء" (2/139): "إن المنبر يقطع بعض الصفوف، وإنما
الصف الأول المتصل الذي في فناء المنبر، وما على طرفيه
مقطوع، وكان الثوري يقول: الصف الأول هو الخارج بين يدي
المنبر، وهو متجه لأنه متصل، ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب
ويسمع منه".
قال شيخنا: "وإنما يقطع المنبر الصف إذا كان مخالفاً لمنبر
النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان له ثلاث درجات، فلا
ينقطع الصف بمثله، لأن الإمام يقف بجانب الدرجة الدنيا منها.
فكان من شؤم مخالفة السنة في المنبر الوقوع في النهي الذي
في هذا الحديث.
ومثل ذلك في قطع الصف المدافيء التي توضع في بعض
المساجد وضعاً يترتب منه قطع الصف، دون أن ينتبه لهذا
المحذور إمام المسجد أو أحد من المصلين فيه لبعدها عن الناس أولاً
عن التفقه في الدين، وثانياً لعدم مبالاتهم بالابتعاد عما نهى عنه
الشارع وكرهه". أ.هـ.

فهم السلف للنصوص النبوية المتقدمة

لقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختلاف في
الصف في الصلاة، وظل على ذلك التحذير مستمراً طوال
عمره، فهو صلى الله عليه وسلم يؤكد على إقامة الصف
وتسويته في كثير من النصوص - كما تقدم وبألفاظ متعددة كما

لاحظنا - ، نظراً لكون الاختلاف في الصف يفضي إلى اختلاف القلوب فحذر وأكد، فكان من أقواله صلى الله عليه وسلم: "فتختلف قلوبكم".

"أو ليخالفنَّ الله بين قلوبكم" .

"أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم".

واستمراره صلى الله عليه وسلم على التحذير من عاقبة الاختلاف في الصف، وتأكيدده على ضرورة تسوية الصف، مشعر أن هذه الشعيرة من الخطورة بمكان أن التفريط بها أو إهمالها،

له عواقب سيئة. إنها السنة النبوية النابعة من قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما أنا رحمة مهداة"، لأن الفاء المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم: "فتختلف" فاء السببية، فيكون معنى الحديث: الاختلاف في تسوية الصفوف سبب في اختلاف القلوب.

لذلك جاء فهم السلف موافقاً العمل بهذه النصوص اتباعاً لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وحباً في نيل محبة الله تعالى ورضاه، ومراعاةً لعدم الوقوع في الخطيئة الكبيرة وهي الفرقة والاختلاف، وانتصاراً للحق، وخذلاناً للباطل، وصوناً لوحدة الصف.

ومن عظيم أهمية الأمر بتسوية الصف، أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى صفوف المصلين من وراء ظهره. فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: أقيمت الصلاة، فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه، فقال:

"أقيموا صفوفكم وتراصوا، فإني أراكم من وراء ظهري".

أورد هذا الحديث الإمام البخاري في "صحيحه" - باب إقبال الإمام علي الناس عند تسوية الصفوف -.

لذلك نجد أنس بن مالك - رضي الله عنه - "أنه قدم المدينة، فقيل له: ما أنكرت منا منذ يوم عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: ما أنكرت شيئاً إلا أنكم لا تقيمون الصفوف". وهذا الخبر بوجه الإمام البخاري في "صحيحه" تحت مسمى: باب إثم من لم يتم الصفوف.

فيا أخي المسلم المتبع لسنة نبيك وفهم أصحابه أنظر إلى أهمية الملاحظة التي أبدى بها أنس حين سئل: ما أنكرت منا؟ فأجاب بقوله: "ما أنكرت شيئاً إلا أنكم لا تقيمون الصفوف"، إنه التوجيه السلفي لفهم النص النبوي.

وقد بين أنس - رضي الله عنه - كيف كانت تسوية الصفوف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول فيما أخرجه البخاري في "صحيحه": "وكان أحدنا يلزق منكبه بمنكب صاحبه، وقدمه بقدمه". وقد تقدم قول النعمان "وكعبه بكعبه" - والمراد بالكعب: العظم الناتئ في جانبي الرجل وهو عند ملتقى الساق والقدم، وهو الذي يمكن أن يلزق بالذي جنبه -.

ثم يقول أنس في رواية له عند المخلص: "فلقد رأيت أحدنا يلصق منكبه بمنكب صاحبه، وقدمه بقدمه، فلو ذهبت تفعل هذا اليوم، لنفر أحدكم كأنه بغل شמוש".

وقال أبو مسعود فيما رواه الإمام مسلم في "صحيحه" بعد أن ذكر حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "استووا ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم"، قال أبو مسعود: "فأنتم اليوم أشد اختلافاً".

- يعني أهل الفتنة - وفي قوله - رضي الله عنه - التحذير من الاستهانة بتسوية الصف.

وجاء في الموطأ بإسناد صحيح: حدثني مالك عن عمه أبي سهيل بن مالك، عن أبيه أنه قال: كنت مع عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فقامت الصلاة، وأنا أكلمه، وهو يسوي الحصاء بنعليه، حتى جاءه رجال، قد كان وكلهم بتسوية الصفوف، فأخبروه أن الصفوف قد استوت، فقال لي: استو في الصف، ثم كبر.

قلت: وهذا لعظيم تسوية الصفوف وأهمية ذلك، وبيان لعظم الخطر المحقق لمن خالف هذا الهدي النبوي.

ولهذا الحرص دليل واضح من فعل النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج أبو داود، والنسائي، وابن خزيمة، وابن حبان في "صحيحه" وهو في "صحيح الترغيب والترهيب" (513) عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية، يمسح صدورنا ومناكبنا ويقول: "لا تختلفوا فتختلف قلوبكم".

ودرج العلماء من السلف - رحمهم الله - على بيان أهمية تسوية الصفوف في مؤلفاتهم، وجمعهم للأحاديث فيها هو إمام أهل الحديث، الإمام البخاري - رحمه الله - يسمي باباً في "صحيحه" "إثم من لم يتم الصفوف". وللحافظ المنذري في كتابه "الترغيب والترهيب" "الترهيب من تأخر الرجال إلى أواخر صفوفهم، وتقدم النساء إلى أوائل صفوفهم، ومن اعوجاج الصفوف". وللإمام الشوكاني في كتابه "نيل الأوطار" باب

سماه: "الحث علي تسوية الصفوف ورضها وسد خللها". وابن خزيمة صدّر عنواناً في "صحيحه" سماه: "باب الأمر بتسوية الصفوف قبل تكبير الإمام". و "باب الأمر بالمحاذاة بين المناكب". و "باب الأمر بسد الفرج" و "باب التغليظ في ترك تسوية الصفوف".

قال الشيخ حسين العوايشة - حفظه الله - في كتابه "تسوية الصفوف وأثرها في حياة الأمة" (صفحة:48):
"ولا يخفى على المتأمل ما تحدثه الصلاة بين السواري من قطع الصفوف، وعدم التراصّ والالتصاق، فالمنع هو الذي تطمئن له النفس، دون أن يسمع النصوص المتقدمة، فكيف إذا سمعها؟ وقد ورد فيها لفظ "نطرد" وهو مما يشعر بالتحريم، ثم إيراد المفعول المطلق "طرداً" مما يزيد تأكيداً".أ.هـ

وكما درج العلماء من السلف - رحمهم الله - على بيان أهمية تسوية الصفوف في مؤلفاتهم، درجوا أيضاً على ذكر الزجر عن الصلاة بين السواري لأنها تقطع الصفوف، فقد بوّب ابن خزيمة في "صحيحه" باباً بقوله: "باب طرد المصطفين بين السواري عنها". وبوّب على حديث أنس "باب النهي عن الاصطفاف بين السواري". وبوّب الإمام ابن حبان في "صحيحه" باباً بقوله: "ذكر الزجر عن الصلاة بين السواري جماعة". وبوّب الترمذي في "سننه" على حديث أنس "باب ما جاء في كراهية الصف بين السواري". وبمثله بوّب البيهقي وقال بعده: "وهذا - والله أعلم - لأن الأسطوانة تحول بينهم وبين وصل الصف، فإن كان منفرداً، أو لم يجاوزوا ما بين الساريتين، لم يكره إن شاء الله تعالى".

التوجيه المنهجي النبوي والفوائد المستخلصة من الأحاديث في بيان منع الصلاة جماعة بين السواري

ولنا بعد سرد الأحاديث النبوية، والإطلاع على أفعال وأقوال السلف - رضي الله عنهم - ومن تبعهم بإحسان في فهم النصوص الحديثية، أن نستخلص الفوائد والعبر في التوجيه المنهجي النبوي.

1/ في هذه الأحاديث دعوة واضحة إلى وحدة الصف، ولا يجوز لأحد أن يستهين بهذه الشعيرة، وبهذه السنة العظيمة الأثر، وبهذا الهدى الذي جاء به نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، إن إحياء سنة تسوية الصفوف لها أجر عظيم عند الله، لأن الذي يعمل على إحيائها فإنه يدعو الأمة إلى توحيد صفها، ولا يتأتى

لها ذلك إلا إذا اتبعت نبيها، وكيف لها أن تترك هذه السنة وهي تسمع قول نبيها صلى الله عليه وسلم وهو يحثها على التسوية، والرص، والإقامة، والمحاذاة، وسد الخلل. فإذا فشلت في تحقيق وحدتها في الصف في المسجد، فهي أخرى بالفرقة خارجة، بل هي عقاباً لها مستحقة للفرقة، وقد تحقق فيها قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه ابن خزيمة في "صحيحه" من حديث البراء بن عازب: "لا تختلف صدوركم، فتختلف قلوبكم"، فهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم. وإذا وقع الاختلاف، وقع الشر والفتن، وغلب العدو، فالاختلاف في الصف الظاهر دليل واضح على الاختلاف في الباطن - نوايا القلوب -، أو الاختلاف على اتباع السنة وفهم المنهج النبوي. فعدم اتباع الهدي النبوي في تسوية الصف محلبة للشر وغضب الرب، والاستهانة في تعظيم هذه السنة مآل أصحابها الاختلاف والتفرق، ومعاداة إحياء هذه السنة مشعر بوجود الشياطين الذين لا يهمهم إلا تفريق الصف، من أجل هذا نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي يؤكد فيه على تسوية الصف حتى يكون كل من فيه على قلب رجل واحد، يحذر تخلل الشياطين فيقول في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في "مسنده"، وأبو داود عن البراء - رضي الله عنه -: "أقيموا صفوفكم، لا يتخللكم الشياطين كأنها أولاد الحذف، قيل يا رسول الله: وما أولاد الحذف؟ قال: سود جرد بأرض اليمن. والمراد بأولاد الحذف: أولاد الضأن الصغار. وفي "القاموس" غنم سود صغار حجازية أو جرشية، بلا أذنان ولا أذان. وفي حديث آخر رواه الطيالسي، وأبو داود عن أنس - رضي الله عنه - وهو في صحيح الجامع (1205): فوالذي نفسي بيده، إني لأرى الشياطين بين صفوفكم، كأنها غنم عُفر". والعُفر: البياض غير الناصع.

وإذا تخللت الشياطين وقع الهلاك، والمنازعة، والفشل، ووقعنا في الذي حذرنا منه الله تعالى بقوله في سورة الأنفال: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري عن ابن مسعود: "لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا". لذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على وحدة الصف، وسد الفرج، حتى لا تكون الفرج مرتعاً للشياطين، وفي حديث ابن عمر الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي وغيرهم، وهو في "صحيح الجامع" (1198): "ولا تذروا فرجات للشيطان".

وفي الحديث الذي أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" وهو في "الصحيحة" (1757) عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياي والفُرج، يعني في الصلاة". ومن ثم كان الأجر والثواب لمن سد فرجة، ففي الحديث الذي رواه أبو داود كما في "صحيح الترغيب والترهيب" (507)، أن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من سد فرجة؛ رفعه الله بها درجة، وبنى له بيتاً في الجنة". وفي حديث آخر:

"وما من خطوة أحب إلى الله؛ من خطوة يمشيها العبد يصل بها صفاً".

فلاحظ أخي المسلم، يا عبد الله، كم هو مهم وصل الصف، وسد الفرجة، والمحاذاة بين المناكب. وقديماً قالوا: عند انسداد الفُرج، تبدو طلائع الفُرج.

ومن المهم أن نبيّن أنه لا بد أن نحاذي بين المناكب والأعناق لقوله صلى الله عليه وسلم: "وحاذوا بالأعناق". وقوله عليه السلام: "وحاذوا بين المناكب".

بحيث لا يتقدم عنق على عنق، ولا منكب على منكب، ولا صدر على صدر. وهذا من تمام الصلاة، ومن إقامة الصلاة. فقد أخرج البخاري، ومسلم، وابن ماجه، وغيرهم وهو في "صحيح الترغيب والترهيب" (494): "سوّوا صفوفكم، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة".

وفي رواية لأنس عند البخاري، ومسلم، وأبو داود، وغيرهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سوّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة"، وفي رواية عند مسلم "فإن إقامة الصف من حسن الصلاة".

وكما اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بصلاة الجماعة في المسجد، اهتم أيضاً بتسوية الصف فيها، فليس هذا أقل شأناً من صلاة الجماعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في "مجموع الفتاوى" (394-23/393):

"فإن صلاة الجماعة سميت جماعة؛ لاجتماع المصلين في الفعل مكاناً وزماناً، فإذا أخلوا بالاجتماع المكاني أو الزماني، مثل أن يتقدموا أو بعضهم علي الإمام، أو يتخلفوا عنه تخلفاً كثيراً لغير عذر، كان ذلك منهيّاً عنه باتفاق الأئمة، وكذلك لو كانوا متفرقين غير منتظمين، مثل أن هذا خلف هذا، وهذا خلف هذا، كان هذا من أعظم الأمور المنكرة، بل قد أمروا

بالاصطفاف، ولو لم يكن الاصطفاف واجباً؛ لجاز أن يقف واحد خلف واحد، وهلم جرا، وهذا مما يعلم كل أحد علماً عاماً أن هذه ليست صلاة المسلمين".أ.هـ

وإذا كنا نتكلم عن الجماعة ووحدة الصف لأهمية الموقف الذي يجب أن يكون عليه المسلم في وقت زاد فيه زخم الفتن، فإننا ننبه أن هذه السنة التي يجب علينا إحياءها هي مفتاح لنيل محبة الله عز وجل، قال الله تعالى في سورة الصف: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص). قال ابن كثير في تفسيره: قال قتادة:

"ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه! فكذلك الله - عز وجل - لا يحب أن يختلف أمره، وإن الله صف المؤمنين في قتالهم، وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله، فإنه عصمة لمن أخذ به".

وتعقب الشيخ حسين العوايشه - حفظه الله - قول قتادة بقوله: "ولنتأمل قول قتادة - رحمه الله - فقد عطف صفهم في الصلاة، على صفهم في القتال، فذكر البنيان المرصوص في القتال والصلاة، فإن كان صاحب البنيان يحب تماسك بنيانه وقوته، فالله تعالى أولى؛ أن يحب ائتلاف المؤمنين وتماسكهم، وتراصهم في القتال والصلاة، وإن لم نحقق التراص في صلاتنا، فمتى وأين وكيف نحققه؟

وجاءت الأحاديث بدورها للترغيب في وصل الصف، والترهيب من قطعه، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - فيما أخرجه أحمد ، وأبو داود، والنسائي، وغيرهم وهو في "صحيح الجامع" (1198): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أقيموا الصفوف، فإنما تصفون بصفوف الملائكة، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعه الله عز وجل".

قال شيخنا الألباني - رحمه الله - في "الصحيحة" (32): "ومن المؤسف أن هذه السنة من التسوية قد تهاون بها المسلمون، بل أضاعوها إلا القليل منهم".أ.هـ
والسواري - هذه الاسطوانات المبنية لرفع سقف المسجد - تعمل على قطع الصف في صلاة الجماعة، وإذا كنا نخشى أن تصيبنا فتنة من الله، أو يصيبنا عذاب أليم، فعلينا باتباع الهدي النبوي برص الصف وتسويته أولاً، وألا ندع هذه السواري تقطع

صفوفنا ثانياً، ومن هنا جاء التعليل بالنهي عن الصلاة بين السواري، لأنها تقطع الصفوف.

قال شيخنا - رحمه الله -:

"وينبغي أن يعلم أن كل من يسعى إلى وضع منبر طويل قاطع للصفوف، أو يضع المدفئة التي تقطع الصف، فإنه يخشى أن يلحقه نصيب وافر من قوله صلى الله عليه وسلم: "ومن قطع صفاً قطعه الله".أ.هـ

قال الشيخ خير الدين وانلي - حفظه الله - في كتابه "المسجد في الإسلام":

"لما كان فن الهندسة بدائياً، كانت السواري ضرورة من الضرورات للبناء، أما وقد ترقى الهندسة وأدواتها فقد صار بالإمكان بناء جسر عظيم دون أن يستند إلى السواري، ومعلوم أن السواري تقطع الصفوف.."

ثم قال بعد أن ذكر طرفاً من أدلة النهي المتقدمة:

"ولما للسواري من محاذير قطع الصفوف فيمكن اليوم بعد رقي الهندسة المعمارية تقليلها إلى أقصى حد ممكن، بل الاستغناء عنها إن أمكن.

ويجب على المصلين ملاحظة هذه السواري حين الصلاة، وجعلها أمام الصف أو خلفه، لا أن تشترك مع المصلين في الصف وتفصل بعضهم عن بعض".أ.هـ
وقال مالك: "لا بأس بالصفوف بين الأساطين إذا ضاق المسجد".

وقال الشيخ علي حسن - حفظه الله - في كتابه "توفيق الباري في حكم الصلاة بين السواري" (صفحة:34):

وأما في سعة المسجد: فالنهي قائم دونما شك، وأما في الضيق: فهو جائز، فعلة الصحابة عندما "اضطروا" إليه. 2/ وفي هذه الأحاديث الحاثثة على تسوية الصف، والأحاديث الناهية عن الصلاة بين السواري ابتلاء على الطاعة، فهذه الشعيرة في نظر الجهلة، أعداء السنة أنها من القشور والمظاهر والتفاهات، وأن هناك حسب زعمهم أولويات، وما علموا هؤلاء - ضيقوا الفهم - أن الله تعالى يتلى الناس عليها ليطمئن أصحاب الحق والخير عما سواهم من أهل الباطل والضلال والشر والخرافة، وليتميز أهل الجد والإخلاص عما سواهم من أهل التخلف والنفاق، وليتميز أهل الوحدة عن أهل الفرقة، وليتميز أهل السنة عن أهل البدعة.

وليعلم هؤلاء أعداء السنة وأصحاب الهوى والفرقة، أن الذي يمثل سنن المصطفى في تسوية الصف، ويتحاشى الصلاة بين السواري في الجماعة فإنه من خيار الناس. فقد روى أبو داود، والبيهقي، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو في "صحيح الجامع" (3259) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خيركم أئمتكم منكم في الصلاة".

قال صاحب بذل المجهود: معناه: أنه إذا كان في الصف وأمره أحد بالاستواء، ويضع يده على منكبه، ينقاد ولا يتكبر، فالمعنى: "أسرعكم انقياداً".

وقال الخطابي: معناه: لزوم السكينة والطمأنينة بحيث لا يلتفت، ولا يجاوز منكبه منكب من بجنبه، ولا يمنع من أراد دخولاً في صف لسد فرجة، أو لضيق مكان، بل يمكنه من ذلك، ولا يدفعه بمنكبه".

قال الله تعالى في سورة النساء: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليماً).

نصيحة لإخواننا الأئمة والمصلين

1/ من الملاحظ على كثير من أئمة المساجد التكبير للدخول في صلاة الجماعة دون اهتمام يذكر بتسوية الصف كما جاء في الأحاديث المتقدمة، وربما يكتفي البعض منهم بترديد عبارات مخالفة للسنة النبوية في كثير من الأحيان، مثل: "استحضروا النية" والحكاية في هذا الباب طويلة، لكن الذي أردت لفت الانتباه إليه هو اكتفاء بعض الأئمة بقوله: استووا، استووا، ولربما قالها وهو يعطي ظهره للمصلين، فيقع في مخالفتين: الأولى: اقتصاره على القول: استووا، مع أن الأصل أن يأتي بتمام الحديث ليشعر بأهمية تسوية الصفوف، ويلقي في قلوب المصلين الرهبة مخافة ترك التسوية. فيقول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: استووا ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم. الثانية: إذا أعطى الإمام ظهره للمصلين، وأمرهم بالاستواء، فهذا إهمال، أو تفريط بسنة أكد النبي حرصه على إحيائها، فهذا النعمان بن بشير - رضي الله عنه - يقول: أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه على الناس فقال: "أقيموا صفوفكم ثلاثاً، والله لتقيم صفوفكم أو ليخالفن بين قلوبكم". وحديث أنس أيضاً يصف فعل النبي صلى الله عليه وسلم وهو مشعر باهتمامه يقول أنس: أقيمت الصلاة، فأقبل علينا رسول

الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال: "أقيموا صفوفكم ،
وتراصوا، فإني أراكم من وراء ظهري" .
وهذا ابن مسعود ينقل لنا فعل النبي أيضاً في تسوية الصف
فيقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في
الصلاة. وفي رواية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
يسوي صفوفنا حتى كأنما يسوي القداح.
2/ وقد يشرع الإمام في تكبيرة الإحرام من غير أن يأمر بتسوية
الصفوف، وهذا مخالف للسنة .

3/ وتحت عنوان "سنة متروكة يجب إحيائها" قال شيخنا
الألباني - رحمه الله - في "الصحيحة" (31):
استفاضت الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم
في الأمر بإقامة الصفوف وتسويتها، بحيث يندر أن تخفى على
أحد من طلاب العلم فضلاً عن شيوخه، ولكن ربما يخفى على
الكثيرين منهم، أن من إقامة الصف تسويته بالأقدام، وليس
فقط بالمناكب، بل لقد سمعنا مراراً من بعض أئمة المساجد
حين يأمرهم بالتسوية التنبيه على أن السنة فيها إنما هو
بالمناكب فقط دون الأقدام! ولما كان ذلك خلاف الثابت في
السنة الصحيحة، رأيت أنه لا بد من ذكر ما ورد فيه من الحديث
تذكيراً لمن أراد أن يعمل بما صح من السنة، غير مغتر بالعادات
والتقاليد الفاشية في الأمة".أ.هـ

4/ أتوجه بالنصيحة للأئمة والمصلين أن يتقوا الله تعالى في
إحياء هذه السنة، وأن يستووا في صفوفهم كما أمر النبي صلى
الله عليه وسلم، وألا يدعوا السواري تقطع صفوفهم، ولله
الحمد فقد باشرنا هنا في فلسطين التنبيه عليها في المسجد
الأقصى من أجل إحيائها والعمل بها ، فلاقت هذه السنة
استغراباً عجيباً من الناس ، الذين أسعفناهم بفضل من الله
تعالى ببيان حكمها لعل الله تعالى يهديهم إليها، وبادر طلابنا
الأفاضل بارك الله فيهم وهم من محبي السنة الانتصار لها
والعمل بها ، في الوقت الذي لم تلق فيه للأسف تشجيعاً من
أئمة المسجد الأقصى! الذين سمعنا على لسان بعضهم ما لم
نتوقعه!

5/ من الأخطاء التي نراها في المسجد الأقصى الصلاة في
أمكنة بعيدة عن الصف، وقد يكون هذا استرواحاً ، أو تعوداً في
الصلاة في مكان معين في المسجد!! وقد يكون كسلاً منهم
للوصول إلى الصفوف الأولى، أو من أجل الجمع بين الوظيفة
والصلاة كما يفعل بعض حراس المسجد الأقصى!! فنقول
لهؤلاء الناس:

فعلكم هذا مخالف للهدى النبوي لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه قولاً حري بكم أن تسمعوه، قال فيما أخرجه الإمام مسلم:

"تقدموا فائتموا بي، وليأتم بكم من بعدكم، لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في مجموع الفتاوى (23/410):

"ولا يصف في الطرقات والحوانيت، مع خلو المسجد، ومن فعل ذلك استحق التأديب، ولمن جاء بعده تخطيه، ويدخل لتكميل الصفوف المتقدمة، فإن هذا لا حرمة له".
قال: فإن امتلأ المسجد بالصفوف، صفوا خارج المسجد، فإذا اتصلت الصفوف حينئذ في الطرقات والأسواق صحت صلاتهم، وأما إذا صفوا وبينهم وبين الصف الآخر، طريق يمشي الناس فيه، لم تصح صلاتهم في أظهر قولي العلماء. وكذلك إذا كان بينهم وبين الصفوف حائط، بحيث لا يرون الصفوف ولكن يسمعون التكبير، من غير حاجة، فإنه لا تصح صلاتهم في الأظهر، وكذلك من صلى في حانوته، والطريق خال، لم تصح صلاته، وليس له أن يقعد في الحانوت، وينتظر اتصال الصفوف به، بل عليه أن يذهب إلى المسجد فيسد الأول فالأول فالأول".أ.هـ.

أما الحراس فواجبهم القيام بوظيفتهم الحراسة وقت الصلاة، إلا إذا أرادوا الصلاة مع الناس مع وجود من ينوب عنهم في الحراسة فعليهم ألا يصلوا عند الأبواب بل يتقدمون للصلاة في الصفوف الأولى.

6/ ومن الأخطاء وجود جماعتين في المسجد الأقصى، جماعة تصلي في قبة الصخرة، وجماعة تصلي في مقدمة المسجد، فهذا تفريق للجماعة مبتدع لم يكن يعمل من قبل، ولا حجة مقبولة لمن أراد أن يسوغ هذا الفعل، ففيه ما فيه من تفريق الجماعة.

قال شيخنا الألباني - رحمه الله - في "الصحيحة" (31) بعد ذكر فوائد الأحاديث الحاتة على تسوية الصف:

"وخلاصة القول: أنني أهيب بالمسلمين - وخاصة أئمة المساجد - الحريصين على اتباعه صلى الله عليه وسلم، واكتساب فضيلة إحياء سنته صلى الله عليه وسلم، أن يعملوا بهذه السنة، ويحرصوا عليها، ويدعوا الناس إليها، حتى يجتمعوا عليها جميعاً، وبذلك ينجون من تهديد: أو ليخالفن الله بين قلوبكم" انتهى.

(33)

منازل الندم وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ

المنزل الأول: الندم عند حضور الموت.

قال الله تعالى في سورة ق: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) (19).

فالكافر يطلب التأخير من أجل أن يؤمن ويعمل عملاً صالحاً، وذلك حين تيقن ضلالاته وعاین الملائكة التي تقبض روحه، قال تعالى في سورة الأنفال: (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ..(50)). والمؤمن المفرط يطلب التأخير أيضاً لأنه ضيع وترك العمل الصالح الذي فيه طاعة ربه عز وجل، وقيل: فيما ترك من المال حتى يتصدق، فالعمل الصالح نعمة عظيمة فالمحافظة على الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، واتباع سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم، واجتناب البدع والضلالات والخرافات، والقيام بفرائض الله تعالى، وتدبر الكتاب العزيز، وتعليم الناس، والصدقة، وبر الوالدين، والأخلاق الحسنة، نعم عظيمة قال الله تعالى في سورة المؤمنون: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ) (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (100).

نقل البغوي وابن كثير قول قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل .

قال القرطبي في "الجامع": "ودلت الآية على أن أحداً لا يموت حتى يعرف اضطراباً أهو من أولياء الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة، فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذواقه". واستظهر الشنقيطي - رحمه الله - كلام ابن عطية في الآية: من أن الكافر والمفرط في عمل الخير إذا حضر أحدهما الموت طلبا الرجعة إلى الحياة، ليعملا العمل الصالح الذي يدخلهما الجنة، ويتداركا به ما سلف منهما من الكفر والتفريط وأنهما لا يجابان إلى ذلك كما دل عليه حرف الزجر والردع الذي هو (كلا) جاء موضحاً في مواضع أخر كقوله تعالى في سورة المنافقون:

(وَأَنْفَعُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا.. (11))

وقوله تعالى في سورة إبراهيم: **(وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَبِعَ الرَّسُلَ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44))**. إلى غير ذلك من الآيات.

المنزل الثاني: عند حمل الجنازة.

أخرج البخاري في "صحيحه" ، والنسائي، وأحمد ، والبيهقي، عَنْ سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

"إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا الرَّجَالُ عَلَىٰ أَعْتَاقِهِمْ فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي، قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيُّنَ يَذْهَبُونَ بِهَا، يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ وَلَوْ سَمِعَهُ لَصَعِقَ" .

ولذلك وجب الإسراع في السير في الجنازة ، سيراً دون الرمل، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً: **"أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها عليه، وإن تكن غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم"** .

المنزل الثالث: في القبر.

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ حَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَتَيْتُنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَانَ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ وَفِي يَدِهِ عُوْدٌ يَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ:

"اسْتَبْعِدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ يَبْسُ الْوُجُوهُ كَأَنَّ

وَجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَرُوا مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَخَنُوطٌ
مِنْ خَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَحْيَىءُ
مَلِكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ
أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ أَخْرَجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ

وَرِضْوَانٍ ..

إِلَى أَنْ قَالَ:

"وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَ
مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ
مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَحْيَىءُ مَلِكُ
الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيُّهَا النَّفْسُ
الْحَبِيبَةُ أَخْرَجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَعَظَبٍ قَالَ فَتَفَرَّقَ
فِي جَسَدِهِ فَيُنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّعْوُدُ مِنَ الصُّوفِ
الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً
عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجَ مِنْهَا كَأَنَّ
رِيحَ حَيْفَةٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ..

إِلَى أَنْ قَالَ:

"فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ
فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ
مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا
الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي فَيُنَادِي
مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرُشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا
لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا وَيُصَيِّقُ عَلَيْهِ
قَبْرُهُ حَتَّى تَحْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ
قَبِيحُ الْبَيَاطِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَنْبَشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا
يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعِدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ
يَحْيَىءُ بِالْشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْحَبِيبُ فَيَقُولُ رَبِّ لَا تُعِمُّ
السَّاعَةَ".

المنزل الرابع: يوم القيامة.

يندم ويقول: (يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي). يندم أنه لم يقدم
الإيمان ، ويندم أنه لم يقدم العمل الصالح ، ويندم أنه لم يقدم اتباع
محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى في سورة الفجر: (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا)
(21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَحِيَاءٌ يَوْمَئِذٍ
بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ
يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24). قال ابن كثير رحمه الله -: يندم
على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً وبود لو كان

ازداد من الطاعات إن كان طائعاً. قلت: كما يندم المبتدع الذي ابتدع في دين الله تعالى ما ليس فيه ويتمنى لو انتهج في الدنيا منهج النبي محمد صلى الله عليه وسلم وكان من أتباعه محباً للسنة داعياً لها ويشهد لهذا القول قول الله تعالى في سورة الفرقان: **(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي .. (29).** وقال تعالى في سورة الحاقة: **(وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ (25).** وحين تعاین الحقیقة ویقف المرء على مرأى من الوضوح والتجلي فإنه لا ينفع الندم كما قال تعالى في سورة الأعراف: **(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (53).**

المنزل الخامس: عند الحساب والقضاء والناس بين

يدي الله تعالى.

قال الله تعالى في سورة السجدة: **(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (12).**

يقولون: ربنا بان لنا الأمر ووضح - الآن - مع أنه كان واضحاً لهم في دنياهم التي ابتلوا فيها لكنهم أثروا الدنيا على الآخرة وكفروا بالله وعصوا ومضى وقت الإمهال وخسروا الفرصة الممنوحة بعنادهم بعد إقامة البيان والحجة والدليل . قال الله تعالى في سورة النبا: **(إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40).**

فحين عاين الكافر عذاب الله ونظر إلى حكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقصص للشياة الجماء من القرناء فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها: كوني تراباً فتصير تراباً فعند ذلك يقول الكافر **(يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا).** وقد ورد معنى هذا في حديث أبي هريرة مرفوعاً - والذي أخرجه ابن جرير في "تفسيره" وهو في "الصحيحة" (

1966) :- **"يقضي الله بين خلقه الجن والإنس والبهائم، وإنه ليقيد يومئذ الجماء من القرناء، حتى إذا لم يبق تبعه عند واحدة لأخرى قال الله: كونوا تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا).**

المنزل السادس: عند أول مس من العذاب وهو أدناه.

وقال الله تعالى في سورة الأنبياء: (وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَتَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (46)).

المنزل السابع: عند الوقوف على النار.

قال الله تعالى في سورة الأنعام: (وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)).

المنزل الثامن: في الوهلة الأولى لرؤية النار.

وقال الله تعالى في سورة الملك: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)). وقال تعالى في سورة الشورى: (... وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ (44)).

المنزل التاسع: وهم في النار.

ومقالاتهم في النار كثيرة وعجبية تعبر عن خالص ندمهم فلا يردون ولا يعذرون.

قال الله تعالى في سورة الأحزاب: (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (66)).

وفي الآية كما ترى بيان لأهمية طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالة للعصاة والمبتدعة الذين يفرقون بين الكتاب والسنة، أو يفرقون بين السنة والسنة - بزعمهم - هذا متواتر وهذا أحاد. فلهم أن يراجعوا أنفسهم الآن قبل فوات الأوان قبل أن يقولوا يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول. وقال الله تعالى في سورة فاطر: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْصَىٰ عَنْهُمْ عَذَابٌ غَيْرُ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (36)) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37).

ومعنى قوله تعالى: (يَصْطَرِحُونَ) أي: ينادون فيها يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم، لقد سألوا الرجعة في غير وقتها فيقال لهم: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ). قال ابن كثير - رحمه الله -: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: متعناكم في الدنيا، وأدررنا عليكم الأرزاق؛ وقيضنا لكم أسباب الراحة؛ ومددنا لكم في العمر؛ وتابنا عليكم الآيات؛ (وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) وواصلنا إليكم النذر؛ وابتليناكم بالسراء والضراء، لتنبؤوا

إلينا وترجعوا إلينا فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت أجالكم، وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان، بأشرف الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار، دار الجزاء على الأعمال، سألتهم الرجعة. هيهات هيهات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة فامكثوا في جهنم، خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين.

وفي الختام أخي للمسلم اذكر قول الله تعالى في سورة الأنعام:

**(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا
عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ
أُوزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا
يَزُرُونَ (31))**

(34)

أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن

الخلق: بضم اللام وسكونها، الديدن والطبع والسجية، كما أن لصورة الإنسان الظاهرة منه وهي الجسم ولها أوصاف ومعان وكذلك لصورته الباطنة وهي النفس أوصافها ومعانيها المختصة بها وهي الخلق، وأوصاف النفس منها حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف هذه الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولذا تكرر مدح حسن الخلق وذم مساويه.

أخرج الإمام البخاري في كتابه "الأدب المفرد" (464) - واللفظ له - وأحمد في "مسنده"، والترمذي في "سننه"، والبيهقي في "كشف الأستار"، وابن حبان في "صحيحه"، وابن أبي الدنيا في كتابه "التواضع"، وعبد الرزاق في "مصنفه"، والبخاري في "شرح السنة"، والبيهقي في "السنن الكبرى" والخرائطي في "مكارم

الأخلاق"، وغيرهم عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

**من أعطي حظه من الرفق؛ فقد أعطي حظه من الخير؛
ومن حرم حظه من الرفق؛ فقد حرم حظه من الخير.
أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن الخلق،
وإن الله ليبغض الفاحش البذيء.
ولفظه عند البزار: لا يوضع في الميزان أثقل من حسن
الخلق، وإن حسن الخلق ليبلغ بصاحبه درجة الصوم
والصلاة.**

ولفظ الغطريف: أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن.
ولفظ الخرائطي: ما من شيء أثقل في الميزان من حسن
الخلق.

وأخرج الإمام أحمد في "مسنده" وصححه شيخنا في "الصحيحة"
(519) عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها:
إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير
الدنيا والآخرة، وصلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن
الجوار، يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار.

**معنى ما قاله النبي صلى الله عليه
وسلم:**

**وإن حسن الخلق ليبلغ بصاحبه درجة
الصوم والصلاة.**

أخرج الإمام أحمد في "مسنده"، والخرائطي في "مكارم الأخلاق"
وهو في "الصحيحة" (522) عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

**إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات
الله عز وجل لكرم ضريبته، وحسن خلقه.**

وأخرج البخاري في "الأدب المفرد"، والخرائطي، وهو في
"الصحيحة" (794) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم:

**إن الرجل ليدرك بحسن الخلق درجات الصائم القائم
الظمان في الهواجر.**

وأخرجه البغوي في "شرح السنة" عن أبي أمامة مرفوعاً - بإسناد
حسن لشواهد - ولفظه:

**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الساهر بالليل
الظاميء بالهواجر.**
وأخرجه ابن عدي في "الكامل" وهو في "الصحيحة" (795) عن
عائشة مرفوعاً، ولفظه:
**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل، صائم
النهار.**
وأخرج الطبراني في "الكبير" - بإسناد حسن - وعزاه حمدي عبد
المجيد السلفي لسمويه والضياء عن أنس بن مالك عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال:
**إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة،
وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة. وإنه ليبلغ بسوء
خلقه أسفل درجة في جهنم.**

(35)

إن الله لا يحب العقوق

قال الله تعالى في سورة النساء:
**(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ
لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ..)**
(135).

تدل هذه الآية على أن للوالدين منزلة عند الابن، فهو أول ما يدعو
وينصح ويرشد أقرب الناس إليه والديه ثم الأقربين، فمناصحة
الابن لوالديه بر لهما.

أخرج البخاري ومسلم في "صحيحيهما" عن عبد الله بن
ميسعود - رضي الله عنه - قال: **سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ الصَّلَاةُ
لَوْ قُتِلَ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ،
قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.**
وأخرج مسلم في "صحيحه" عن أبي هريرة قال: **قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**

رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ.

وأخرج الإمام أحمد في "مسنده" وهو في "الصحيحة" (675) عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"لا يدخل الجنة عاق، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بالقدر".

وأخرج ابن حبان في "صحيحه" وهو في "الصحيحة" (678) عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا مؤمن بسحر، ولا قاطع رحم".

وأخرج الحاكم في "المستدرک" وهو في "صحيح الجامع" (3063) عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء".

ومعنى ورجلة النساء: المرأة المتشبهة بالرجال. وأخرج الإمام أحمد في "مسنده" بإسناد لا بأس به في الشواهد عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" لا يلج حائط القدس: مدمن خمر، ولا العاق لوالديه، ولا المنان عطاءه". ومعنى حائط القدس: الجنة.

وللحديث شاهد قوي موقوف في حكم المرفوع أخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" عن عبد الله بن عمرو قال:

"لا يدخل حظيرة القدس سكير، ولا عاق، ولا منان".

وأخرج الترمذي، وابن حبان، وغيرهما، وهو في "الصحيحة" (516) عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"رضى الرب في رضى الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد".

ويا أخي المسلم احذر عقوق الوالدين، فعقوق الوالدين من أكبر الكبائر، فقد أخرج البخاري ومسلم في "صحيحهما" عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"أَلَا أَنْتَبُّكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟! ثَلَاثًا ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتًا".

وأخرج الحاكم في "المستدرک" وهو في "الصحيحة" عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا: البغي والعقوق".**

(36)

لا يدخل الجنة قاطع

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: لما نزلت هذه الآية: (وأندر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فعم وخص، فقال: **"يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار؛ يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار؛ يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار؛ يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار؛ يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار؛ فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها.** الحديث أخرجه الإمام مسلم والترمذي وأحمد.

والبلال بمعنى البلل وهو النداء، وأطلق ذلك على الصلة، كما أطلق اليبس على القطيعة، لأن النداء من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه، بخلاف اليبس فمن شأنه التفريق. قال الخطابي: بللت الرحم بلا وبللا أي نديتها بالصلة. وقال الطيبي في قوله صلى الله عليه وسلم (ببلالها) مبالغة بديعة وهي مثل قوله (إذا زلزلت الأرض زلزالها) أي زلزالها الشديد الذي لا شيء فوقه. فالمعنى أبلها بما اشتهر وشاع بحيث لا أترك منه شيئاً.

وقد روى الإمام البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم وهو في "الصحيحة" (2741) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إن الله عز وجل لما خلق الخلق قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب!** قال: **فذاك لك.** قال أبو هريرة: ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **اقربوا إن شئتم: (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم).** سورة محمد

قال ابن كثير في "تفسيره": وهذا نهى عن الإفساد في الأرض عموماً، وقطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال. أهـ

لذلك فإنه لا بد من وصل الأرحام مهما صدر منهم من إساءة، وإن قاطعوك فلا تقطعهم، بل صلهم وتودد لهم وأحسن إليهم. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: أن رجلاً قال: **"يا رسول الله لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسئئون إليّ وأحلم عليهم ويجهلون علي، فقال: "إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك".**

فالشاهد في هذا الحديث أنه لا بد للمرء مهما بلغ رحمه من إساءة له، أن يحلم ويصل، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم **(فكأنما تسفهم الملّ)** قال النووي: كأنما تطعمهم الرماد الحار. وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا لمحسن، بل ينالهم الإثم والقطيعة وإدخالهم الأذى عليه.

وقيل: معناه إنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف الملّ.

وروى الشيخان، وغيرهما عن جبير من مطعم - رضي الله عنه - أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(لا يدخل الجنة قاطع)** قال سفيان: يعني قاطع رحم.

وروى الإمام أحمد، وابن حبان، عن أبي موسى - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر.**

وفي الحديث الذي أخرجه الطبراني في "الكبير" وهو في "الصحيحة" (2548) عن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **ما من ذي رحم يأتي رحمه فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه فيبخل عليه؛ إلا أخرج له يوم القيامة من جهنم حية يقال لها: شجاع يتلمظ؛ فيطوق به.**

قطع الأرحام من الكبائر

قال القاضي عياض - رحمه الله - ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة. والصلة درجات بعضها أرفع من بعض وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجبة ومنها مستحبة. وقطيعة الرحم من صفات المفسدين وصفات الفاسقين الذين قال الله عنهم في سورة البقرة: **(الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون(27)).**

قال ابن أبي جمرة - رحمه الله - صلة الرحم تكون بالمال وبالعون على الحاجة وبدفع الضرر وبطلاقة الوجه مع التحمل على ما يصاب منهم، من القطع والأذى وبالبدعاء، والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا إذا كانوا أهل استقامة، وإذا كانوا فجاراً فبذل الجهد في وعظهم ثم مقاطعتهم مع الإعلام أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق ولا يسقط صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب إلى أن يعودوا إلى الطريق المثلى.

قلت: ولا يباشر المقاطعة إلا بعد بذل الوسع في بيان الحق لهم والدين، وإنما المقاطعة من أجل إشعارهم بتقصيرهم مع الله، أو لأنهم تمادوا في الوقوع بالمعاصي دون اكتراث، مثل سب الدين، وسب ذات الله، ومثل سماع الموسيقى ولعب النرد ومشاهدة الأفلام الهابطة أو التعرض لأهل العلم بالاستهزاء، أو السفور أو الاختلاط، وإذا رأيت منهم إقبالاً على شرع الله، وحب الخير فصلهم وتودد لهم وأكرمهم.

بُئُوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه لصحيح مسلم: يستحب أن يقدم في البر الأم، ثم الأب، ثم الأولاد، ثم الأجداد والجدات، ثم الأخوة والأخوات، ثم سائر المحارم من ذوي الأرحام، كالأعمام والعمات، والأخوال والخالات، ويقدم الأقرب فالأقرب، ويقدم من أدلى بأبوين علي من أدلى بأحدهما، ثم بذى الرحم غير المحرم، كابن العم وبنته وأولاد الخال والخالات، وغيرهم، ثم المصاهرة، ثم بالمولى من أعلى وأسفل، ثم الجار، ويقدم القريب البعيد الدار على الجار، وكذا لو كان القريب في بلد آخر قدم على الجار الأجنبي، وألحقوا الزوج والزوجة بالمحارم. والله أعلم. أهـ. والمسلم البر التقى هو صانع المعروف في أهله وأرحامه، فقد أخرج البخاري في "صحيحه" وأحمد في "المسند" عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"ليس الواصل بالمكافيء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها".

وما أخرجه أبو يعلى، وابن حبان، وهو في "الصحيحه" (1432) عن أبي بردة قال: قدمت المدينة فأتاني عبد الله بن عمر، فقال: أتدري لم أتيتك؟ قال: قلت: لا، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

"من أحب أن يصل أباه في قبره، فليصل إخوان أبيه بعده".

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في "الفتح": أي الذي إذا منع أعطى، قال الطيبي: المعنى ليست حقيقة الواصل ومن يعتد بصلته من يكافيء صاحبه بمثل فعله، ولكن من يتفضل على صاحبه. وقال الحافظ: ههنا ثلاث درجات:

- واصل.

- ومكافيء.

- وقاطع.

فالواصل من يتفضل ولا يُتفضل عليه. والمكافيء من يصل ولا يزيد على ما يأخذ، والقاطع الذي يُتفضل عليه وهو لا يتفضل. وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل، فإن جوزي سمي من جازاه مكافئاً.

لذلك جاءت الأحاديث ترغب الواصل رحمه ومنها:

- (1) ما أخرجه الإمام البخاري في "صحيحه" عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه.** واللفظ عند الإمام أحمد: **من أحب أن يوسع الله عليه رزقه..** الحديث.
- (2) في الحديث المتفق عليه عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله."**
- (3) وعن أبي هريرة في الحديث الذي أخرجه البخاري في "صحيحه" قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"الرحم شجنة من الرحمن فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته."** ومعنى شجنة من الرحمن: الشجنة: عروق الشجر المشتبكة، فيعني أنها أثر من آثار رحمة الله مشتبكة.
- (4) وأخرج الطيالسي وهو في "الصحيحه" (914) عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **الوالد أوسط أبواب الجنة.** وهذا يعني أن على الولد أن يبر والده، فإما ان يحفظ ذلك الباب أو يضيعه.
- (5) وأخرج الترمذي، والطحاوي في "المشكل" وهو في "الصحيحه" (154) عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر.**
- (6) وأخرج الإمام أحمد وغيره، وهو في "الصحيحه" (1598) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **إن الرجل لترفع درجته في الجنة، فيقول: أنى لي هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك.**
- (7) وما أخرجه الترمذي عن ابن عمر أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **يا رسول الله! إنني أصبت ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ قال: هل لك من أم؟ قال: لا، قال: هل لك من خالة؟ قال: نعم، قال: فبرها.**
- فصلة الأرحام كما ترى أخي القاريء سبب مهم في كثرة المال، وطول العمر، ومحبة الأهل، والذكر الطيب في الدنيا وبعد الموت، وفي دخول الجنة، ومغفرة الذنوب، ورفع الدرجات في الآخرة. فهل لك أن توصلهم ولو بالسلام، عاملاً بأقل ما طلبه منك النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي قال عن نفسه **إنما أنا**

رحمة مهداة. فقد أخرج وكيع في "الزهد"، وابن حبان في "الثقات"، وهو في "الصحيحة" (1777) عن سويد بن عامر الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"بُلُوا أرحامكم ولو بالسلاّم"**.

(38)

اتقوا الله وصلوا أرحامكم

في مطلع سورة النساء قال الله تعالى: **(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً(1)).**

قال الضحاك فيما نقله ابن كثير في "تفسيره" في قوله تعالى: **(واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)**: واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بزوجها وصلوها. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، والضحاك، وربيع، وغير واحد.

وقد روى ابن عساكر بإسناده عن عبد الله بن مسعود وهو في "الصحيحة" (869) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **اتقوا الله وصلوا أرحامكم.**

قال شيخنا الألباني - رحمه الله - عقب تخريجه الحديث وتصحيحه: والحديث كالتفسير لقوله تعالى: **(واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)** لأن المعنى: اتقوا الله الذي تساءلون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وهو المعنى الذي اختاره ابن جرير من حيث الأسلوب العربي.

قال الشيخ السعدي - رحمه الله -: افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث على ذلك.

ثم قال - رحمه الله -: وقرن الأمر بتقواه، بالأمر ببر الأرحام، والنهي عن قطيعتها، ليؤكد هذا الحق.
ثم قال: وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عموماً، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها.

لا بد من صلة الأرحام

أخرج البخاري في "صحيحه" والإمام أحمد في "مسنده" عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.**
وأخرج البخاري ومسلم في "صحيحهما" عن أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - أن أعرابياً عرض للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيرة فقال: **أخبرني ما يقربني من الجنة ويباعدني من النار! قال: "تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم".**

وأخرج مسلم في "صحيحه" والترمذي، والبخاري في "الأدب المفرد" عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"إن أبر البر أن يصل الرجل أهل وُدِّ أبيه"**

كان من أول ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم حين وصل المدينة :

صلة الأرحام

وأخرج الترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وغيرهم عن زرارة بن أبي أوفى قال: حدثني عبد الله بن سلام قال: **"لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أنجفل الناس قبله، وقيل: قد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثلاثاً)، فجئت في الناس لأنظر، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: "يا أيها الناس! افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام".**

صلة الرحم أفضل من عتق الرقاب

أخرج البخاري في "صحيحه" والبخاري في "شرح السنة" أن ميمونة بنت الحارث إحدى أمهات المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم أنها اعتقت وليدة لها ولم تستأذن النبي صلى الله عليه وسلم

وسلم، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت: **أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي؟ قال: أو فعلت؟ قالت: نعم. قال أما أنك لو أعطيتها لأخوالك كان أعظم لأجرك. وفي رواية: لو وصلت بعض أخوالك.** وأخرج الإمام أحمد، والطبراني، عن حكيم بن حزام، أن رجلاً **سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصدقات أيها أفضل؟ قال: على ذي الرحم الكاشح.** ومعنى الكاشح: هو الذي يضمّر عداوته في باطنه. والحديث أخرجه الحاكم عن أم كلثوم بنت عقبة، وأبو داود، والترمذي عن أبي سعيد وهو في "الجامع الصحيح" (1110).

(39)

أرحامكم ، أرحامكم

حث النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم على صلة الرحم، حتى في مرضه الذي قبض فيه، فقد أخرج ابن حبان في "صحيحه" (الإحسان:436)، وهو في "الصحيحه" (1538) عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه: **"أرحامكم ، أرحامكم".**

والأرحام كما قال الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - في "الفتاوى الإسلامية": هم الأقارب من النسب من جهة أمك وأبيك، وهم المعنيون بقول الله سبحانه وتعالى: **(وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)** "الأنفال:75" وأقربهم الآباء، والأمهات، والأجداد، والأولاد، وأولادهم وما تناسلوا، ثم الأقرب فالأقرب من الأخوة وأولادهم، والأعمام والعمات،

وأولادهم، والأخوال والخالات وأولادهم، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لما سأله سائل قائلاً من أبر يا رسول الله؟ قال: "أمك" قال: ثم من؟ قال: "أمك" قال: ثم من؟ قال: "أباك، ثم الأقرب فالأقرب". أخرجه الإمام مسلم وغيره.

لذلك نجد النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم يحث على معرفة النسب من أجل صلة الرحم. فقد أخرج الطيالسي وهو في "الصحيحة" (277) عن إسحاق بن سعيد عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل فسأله: من أنت؟ قال: فمت له برحم بعيدة فالآن له القول، فقال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اعرفوا أنسابكم، تصلوا أرحامكم، وإن كانت قريبة؛ فإنه لا قرب بالرحم إذا قطعت وإن كانت قريبة، ولا بعد بها إذا وصلت، وإن كانت بعيدة.**

وأخرج الترمذي، والحاكم، والإمام أحمد في "مسنده"، والسمعاني في "الأنساب" وأورده شيخنا الألباني في "الصحيحة" (276) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر.**

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم (مثرة في المال، منسأة في الأثر): هو قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري وغيره **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَةً.**

ومعنى ينسأ له في أثره: أي يبقى ذكره في الخير حتى بعد وفاته. ومعنى مثرة في المال: أي يكثر ماله وبارك فيه. **صلة الرحم أول خلق وصفت به خديجة النبي صلى الله عليه وسلم**

ففي الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره: **أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ بَعَارٍ جَرَاءٍ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَعَ يَرْجُفُ فَوَإِذْهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ رَمَلُونِي رَمَلُونِي فَرَمَلُوهُ حَتَّى دَهَبَ عَنْهُ الرَّؤُوعُ فَقَالَ لِحَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ حَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ:**

**كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ
الْكُلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الصَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى
تَوَائِبِ الْحَقِّ.. ..الحديث.**

وكذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره في وصف أبي
سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِهَرَقَلٍ فَكَانَ مِمَّا
قَالَ:

**قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ
أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ
مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ
صُعَفَاؤُهُمْ؟ فَعُلْتُ: بَلْ صُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ
يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَزِيدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ
سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ
كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا،
قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا.**

إِلَى أَنْ قَالَ هَرَقَلُ: مَاذَا يَا مُرْكُمُ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا
اللَّهَ وَخُدُّهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ،
وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَقَابِ، وَالصَّلَةِ.
فَالشَّاهِدُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي امْتَدَحَهُ
اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ فِيهِ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ) كَانَ يَأْمُرُ
بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ كَمَا كَانَ يَأْمُرُ بِالصَّلَاةِ لِأَهْمِيَّةِ ذَلِكَ. فَكَانَتْ
قَرِيبُشَ الْمُنْتَصِرِ مِنْهُمْ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَالْخَصْمِ يَعْلَمُونَ مِنْهُ هَذَا الْخَلْقَ الْجَلِيلَ الرَّفِيعَ.

التائب من الذنب كمن لا ذنب له

قال الله تعالى في سورة التحريم:
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الأنهارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ
يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمَنِيهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا
وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8).
قال القرطبي - رحمه الله - في "الجامع لأحكام القرآن" (5/90):
واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين.
أخرج البخاري في "الأدب المفرد" ، ومسلم في "صحيحه"
، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم:
"يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنني أتوب إلى الله في اليوم
مائة مرة".

وقال الله تعالى في سورة المائدة:
(أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74).
وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثير الاستغفار والتوبة،
فقد أخرج الترمذي، وأحمد، وهو في "الصحيحة" (556)
عن ابن عمر - رضي الله عنهما - إن كنا لنعد لرسول الله
صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول: "رب اغفر لي،
وتب علي، إنك أنت التواب الغفور" مائة مرة.

وقال تعالى في سورة الزمر:
(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ
رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ (53).

سئل ابن الجوزي - رحمه الله - كما نقل ذلك ابن حجر في
"الفتح": أسبح أو أستغفر فقال: الثوب الوسخ أحوج إلى
الصابون من البخور.

قصة الرجل الذي قتل مائة نفس

أخرج البخاري في " صحيحه " كتاب أحاديث الأنبياء عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا ، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟! قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَنْتِ قَرِيْبَةٌ كَذَا وَكَذَا ، فَأَذْرِكُهُ الْمَوْتَ ، فَبَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا فَاحْتَضَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي ، وَقَالَ قَيْسُوا مَا بَيْنَهُمَا ، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشَبْرٍ فَعُفِرَ لَهُ " .

واخرج مسلم في " صحيحه " كتاب التوبة عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - " أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ عَلِيَ رَاهِبٌ فَأْتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ: لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدْ عَلِيَ رَجُلٌ عَالِمٌ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا تَصَفَّ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاحْتَضَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ قَيْسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَأَلَى أَيْتَهُمَا كَانَ أَذَى فَهُوَ لَهُ فَعَاسُوهُ، فَوَجَدُوهُ أَذَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَفَقِيصَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ " .

من فوائد الحديث

- 1/ سعة رحمة الله تعالى.
- 2/ قبول توبة المذنب ولو كان قاتلاً شريطة أن يكون مخلصاً لله تعالى ، صادقاً بها، نادماً ، فالندم توبة كما قال

النبى صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه ابن ماجه، وأحمد وغيرهم.
3/ فضل العالم على العابد، فقد أفتى العالم بعلم، وأفتى الراهب بجهل.

(41)

على كل عضو من أعضاء بني آدم صدقة

أخرج الإمام أحمد في "المسند" وهو في "الصحيحة" (574) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"على كل عضو من أعضاء بني آدم صدقة".
ومن فوائد صلاة الضحى أنها تجزيء عن الصدقة التي تصبح على مفاصل الإنسان في كل يوم وهي ثلاثمائة وستون مفصلاً كما في حديث أبي ذر الذي أخرجه مسلم، وأبو داود، وأحمد، وابن خزيمة، والبيهقي، والبخاري في "شرح السنة"، وهو في "الصحيحة" (577) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى".

وأخرج أبو داود، وأحمد، وابن خزيمة، وابن حبان، وغيرهم، بإسناد صحيح عن بريدة بن الحصيب قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

" فِي الْإِنْسَانِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ مَفْصِلًا فَعَلَيْهِ أَنْ
يَتَّصِدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهُ بِصَدَقَةٍ، قَالُوا: وَمَنْ يُطِيقُ
ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ النَّخَاعَةُ فِي الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا
وَالشَّيْءُ تُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَرَكَعْتَ
الصَّحَى تُجْزِيكَ "

(42)

حب الدنيا رأس كل خطيئة

أخرج الترمذي ، وابن ماجه ، والدارمي ، عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَمْرَةَ قَالَ
: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يَقُولُ :

"أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ
أَوْ مُتَعَلِّمٌ "

قال المناوي - رحمه الله - : الدنيا ملعونة لأنها غرت النفوس
بزهرتها ولذتها فأمالتها عن العبودية إلى الهوى، وقال بعد ذكر
قوله وعالما أو متعلما : أي هي وما فيها مبعود عن الله إلا العلم
النافع الدال على الله فهو المقصود منها ، فاللعن وقع على ما غر
من الدنيا لا على نعيمها ولذتها ، فإن ذلك تناوله الرسل والأنبياء .

وأخرج الإمام أحمد، وابن جرير في "التفسير" وغيرهما، وهو في
"الصحيحه" (414) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَالَ :

" إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا
هُوَ ابْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَلَمَّا نَسُوا
مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا
أَخَذَتَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ).

مالي وللدنيا

أخرج الإمام أحمد، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم، وهو في
"الصحيحه" عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال: يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال:

"مالي وللدنيا؟! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها". وأخرج الإمام أحمد في "الزهد" وهو في "الصحيحة" (910) عن مصعب بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"احذروا الدنيا، فإنها حلوة خضرة".

وأخرج الإمام أحمد في "المسند" وهو في "الصحيحة" (911) عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله عز وجل مستخلفكم فيها، لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء".

وأخرج ابن ماجه، وابن حبان، وهو في "الصحيحة" (950) عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه؛ وأتته الدنيا وهي راغمة".

تعس عبد الدينار والدرهم

أخرج البخاري في "صحيحه"، وابن ماجه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطِيَ رضي وإن لم يُعطَ لم يرض".

لذا قال بعض السلف - رحمهم الله -: من أحب الدرهم والدينار فليتهياً للذل.

(43)

حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات

قال الله تبارك وتعالى في سورة النازعات:

فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَأَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَتَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41).

أخرج الإمام مسلم في "صحيحه"، والإمام أحمد، والترمذي، والدارمي من حديث أبي هريرة، وأنس بن مالك عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ".

وأخرج أبو داود، والترمذي - واللفظ له - (صحيح الترمذي: 2075)، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، من حديث أبي

هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جَبْرِيْلَ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّتْ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَجَاءَهَا وَتَنَظَّرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَوَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتِ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيَّ مَا أُعِدَّتْ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتِ بِالْمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ حُفَّتْ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: أَذْهَبُ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّتْ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتِ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ حَشِيْتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كما في "ذيل طبقات الحنابلة" (2/402):

"المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه".

وما ذاك إلا لأن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، فإذا تكلم فبهوى، وإذا صمت فلهوى، وإذا فعل فلهوى، وإذا ترك فلهوى، ولأنه يعيش في محيط هواه الذي أضله وأعماه وأصمه، والذي أسره وقيده، فإن الهوى يأسر صاحبه، ويحبس قلبه عن ربه عز وجل.

أخرج ابن أبي حاتم في "تفسير القرآن العظيم" (15199)، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" لابن

مردويه، عن ابن عباس في قوله: (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) قال: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجراً أحسن منه يعبد الآخر ويترك الأول.

وأخرج ابن أبي حاتم (15201) وعزاه السيوطي لابن المنذر، وابن أبي شيبة، عن الحسن: في قوله تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) قال: لا يهوى شيئاً إلا اتبعه. وأخرج ابن أبي حاتم (15203) وعزاه السيوطي لعبد بن حميد، عن قتادة في قوله تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) قال: والله كلما هوى شيئاً ركبته، وكلما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى.

وقال الله تبارك وتعالى في سورة الجاثية: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (23).

(44)

الناس أربعة ، والأعمال ستة

أخرج الإمام أحمد في "مسنده" - والسياق له -، وابن حبان في "صحيحه"، وابن أبي شيبة في "المصنف" وهو في "الصحيحه" (2604) عن خريم بن فاتك الأسدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

" النَّاسُ أَرْبَعَةٌ وَالْأَعْمَالُ سِتَّةٌ: فَالنَّاسُ مُوسِعٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمُوسِعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَمَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مُوسِعٌ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَشَقِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَعْمَالُ: مُوجِبَاتَانِ، وَمِثْلٌ بِمِثْلٍ، وَعَشْرَةٌ أَضْعَافٍ، وَسَبْعُ مِائَةٍ ضِعْفٍ. فَالْمُوجِبَاتَانِ: مَنْ مَاتَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا فَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا وَجِبَتْ لَهُ النَّارُ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَعَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبَهُ وَحَرَصَ عَلَيْهَا كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ

بِسَيِّئَةٍ لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْهِ وَمَنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَلَمْ تُضَاعَفْ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَمِلَ حَسَنَةً كَانَتْ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَمَنْ أَنْفَقَ تَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ .

ترتيب الحديث لتيسير فهمه

" النَّاسُ أَرْبَعَةٌ وَالْأَعْمَالُ سِتَّةٌ :

قَالَ النَّاسُ أَرْبَعَةٌ :

- (1) مُوسِعٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
- (2) وَمُوسِعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ،
- (3) وَمَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مُوسِعٌ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ،
- (4) وَشَقِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَالْأَعْمَالُ سِتَّةٌ :

مُوجِبَتَانِ، (2+1)

وَمِثْلُ بَمِثْلِ، (4+3)

وَعَشْرَةٌ أَضْعَافٍ، (5)

وَسَبْعُ مِائَةٍ ضِعْفٍ ، (6)

قَالَ الْمُوجِبَتَانِ :

(1) مَنْ مَاتَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا فَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ .

(2) وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا وَجِبَتْ لَهُ النَّارُ .

وَمِثْلُ بَمِثْلِ :

(3) وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَعَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبُهُ وَحَرَصَ عَلَيْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ .

(4) وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْهِ وَمَنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةً وَلَمْ تُضَاعَفْ عَلَيْهِ .

وَعَشْرَةٌ أَضْعَافٍ

(5) وَمَنْ عَمِلَ حَسَنَةً كَانَتْ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا .

وَسَبْعُ مِائَةٍ ضِعْفٍ

(6) وَمَنْ أَنْفَقَ تَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ .

(45)

يا أيها الناس! ابتاعوا أنفسكم من الله من مال الله

قال الله تعالى في سورة الحديد:
(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ
قَالِذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)).

وقال تعالى في سورة النور:
(..وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ.. (33)).

وقال تعالى في سورة سبأ:
(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ
وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39)).
أخرج البخاري في "صحيحه" ، ومسلم، وأحمد، عن أبي
هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَالِ:

" قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ ، وَقَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلَأَى
لَا تَغِيضُهَا تَفَقُّهُ ، سَخَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ
مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ ، وَكَانَ
عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ ".
أخرج الخرائطي في "مكارم الأخلاق" وهو في "الصحيحة"
(271) عن أبي قتادة قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم:

"يا أيها الناس! ابتاعوا أنفسكم من الله من مال الله، فإن
بخل أحدكم أن يعطي ماله للناس فليبدأ بنفسه، وليصدق
على نفسه فليأكل وليكتسب مما رزقه الله عز وجل".
وأخرج الإمام أحمد في "مسنده"، والبخاري في "الأدب
المفرد"، وهو في "الصحيحة" (453) عن المقدم بن
مَعْدِي كَرَبَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"مَا أَطْعَمْتَ نَفْسِكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ".

وأخرج البغوي ، وهو في "الصحيحة" (566) عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"أفضل الصدقة جهد المقل، وابدأ بمن تعول".

وأخرج البخاري، والنسائي، والطيالسي، وهو في "الصحيحة" (729) عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

"إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ".

وأخرج الإمام أحمد في "مسنده"، وهو في "الصحيحة" (1024) عن عمرو بن أمية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"ما أعطى الرجل امرأته فهو صدقة".

وأخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، وغيرهم، وهو في "الصحيحة" (730) عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

"إِذَا أَنْفَقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ طَعَامِ بَيْتِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ ، كَانَ لَهَا أَجْرُهَا بِمَا أَنْفَقَتْ ، وَلِزَوْجِهَا أَجْرُهُ بِمَا كَسَبَ ، وَلِلْخَازِنِ مِثْلُ ذَلِكَ ، لَا يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ أَجْرَ بَعْضٍ شَيْئًا".

وأخرج مسلم في "صحيحه" - واللفظ له - ، والنسائي، والترمذي، عَنْ مُطَرِّفٍ عَنِ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَفْرَأُ الْهَآكِمَ التَّكَاثُرُ قَالَ: "يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي ، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْتِيتَ ، أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْصَيْتَ".

مثل البخيل والمنفق

أخرج البخاري في "صحيحه" - واللفظ له - ، ومسلم، والنسائي، وأحمد، والخرائطي في "مساويء الأخلاق"، وأبو الشيخ في "الأمثال"، والبغوي في "شرح السنة" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تُدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا

يُنْفِقُ إِلَّا سَبَّغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى يُخْفِيَ بَنَاتَهُ وَتَعْفُو
أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ
مَكَاتَهَا فَهُوَ يُوسِّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ".

قال الخطابي - رحمه الله -: "والمراد أن الجواد إذا هم
بالصدقة انفسح لها صدره وطابت نفسه وتوسعت في
الإنفاق، والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه
فضاق صدره وانقبضت يداه".

(46)

من صمت نجا

قال الله تعالى في سورة الهمزة:
(ويل لكل همزة لمزة (1)).

أخرج الحاكم، والبيهقي، وابن خزيمة، وابن حبان، وهو في
"صحيح الجامع" (5376)، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -
قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس الصيام
من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن
سألك أحد، أو جهل عليك، فقل إني صائم، إني صائم".

عن الأعمش عن شقيق فيما أخرجه الطبراني، وأبو الشيخ،
وابن عساكر، وهو في "الصحيحة" (534) قال: "لبي عبد
الله - رضي الله عنه - على الصفا، ثم قال: يا لسان قل
خيراً تغنم، اسكت تسلم، من قبل أن تندم، قالوا: يا أبا عبد
الرحمن هذا شيء أنت تقوله أم سمعته؟ قال: لا، بل
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أكثر
خطايا ابن آدم في لسانه".

وأخرج أبو يعلى، والبيهقي في "الشعب"، وهو في
"الصحيحة" (535) عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن
الخطاب اطلع على أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما -

وهو يمد لسانه ، فقال: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ فقال: هذا أوردني الموارد، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليس شيء في الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته".

وهذا الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وهو في "صحيح الجامع" (351) عن أبي سعيد - رضي الله عنه - مرفوعاً: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا".

لذلك قال علي بن أبي طالب فيما أخرجه ابن أبي الدنيا في "كتاب الصمت" بإسناد حسن (58): "اللسان قوام البدن، فإذا استقام اللسان استقامت الجوارح، وإذا اضطرب اللسان، لم يقم له جارحة".

وأخرج الإمام أحمد، وهو في "الصحيحة" (540) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

"إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب". وفي رواية: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار". وفي "موطأ الإمام مالك، وفي سنن الترمذي، وابن ماجه، وفي مسند الإمام أحمد، وغيرهم، وهو في "الصحيحة" (888) عن بلال بن الحارث المزني، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه".

قال الحسن - رضي الله عنه - فيما أخرجه ابن أبي الدنيا في "كتاب الصمت" بإسناد قوي (34): "ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه".

وتخوف النبي صلى الله عليه وسلم من المنافق عليم اللسان فقال فيما أخرجه الإمام أحمد، وهو في "صحيح الجامع" (1554): "إن أخوف ما أخاف على أمتي، كل منافق عليم اللسان".

وفي "الصحيحين" وغيرهما، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت". قال النووي في "رياض الصالحين" - رحمه الله -: "وهذا صريح أنه ينبغي أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً، وهو الذي ظهرت مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة لا يتكلم".

وأخرج ابن المبارك في "الزهد"، وعنه أحمد، والترمذي، وهو في "الصحيحة" (890)، عن عقبة بن عامر الجهني قال: قلت يا رسول الله! ما النجاة؟ قال: "أملك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك".

وفي رواية أخرجه الطبراني وهي في "صحيح الترغيب والترهيب" (2855) عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طوبى لمن ملك لسانه، ووسع بيته، وبكى على خطيئته".

وقد دل النبي صلى الله عليه وسلم على طريق النجاة في الحديث الذي أخرجه الترمذي، والدارمي، وأحمد، وهو في "الصحيحة" (536) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من صمت نجا".

وكان صلى الله عليه وسلم كما قال جابر بن سمرة فيما ذكره التبريزي في "مشكاة المصابيح" (5826) وعزاه "لشرح السنة" وهو في "صحيح الجامع" (4822): طویل الصمت قليل الضحك.

وأخرج الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، وغيرهم، وهو في "صحيح الترغيب والترهيب" (2862) عن سفيان بن عبد الله الثقفي - رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله! حدثني بأمر أعتصم به قال:

"قل ربي الله ثم استقم" قال: قلت: يا رسول الله ! ما أخوف ما تخاف علي؟ قال: فأخذ بلسان نفسه ثم قال: هذا.

(47)

"خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ"

أخرج الترمذي في "سننه" (صحيح الترمذي 1898) عن عبد الله بن بسر أن أعرابياً قال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال:

"من طال عمره وحسن عمله".

والحديث أخرجه الإمام أحمد في "المسند" عن عبد الله بن بسر بإسناد صحيح، ولفظه:

جَاءَ أَعْرَابِيًّا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ. وَقَالَ الْآخَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ شَرَّائِعَ

الإسلام قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَثَبْتُ بِهِ، فَقَالَ لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وفي رواية:

أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيَّانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَنْ خَيْرُ الرَّجَالِ يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ". وَقَالَ الْآخَرُ: إِنَّ شَرَّاعِ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا فَبَابُ تَمَسُّكِ بِهِ جَامِعٌ، قَالَ: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وأخرج الإمام أحمد في "المسند" بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أَلَا أُتَبِّحُكُمْ بِخَيْرِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ خِيَارُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْمَارًا وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالًا".

وأخرج الترمذي في "سننه" (صحيح الترمذي 1899)، والإمام أحمد، والدارمي، من طرق: عن عَلِيِّ بْنِ رَبِيعٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: " مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ ". قَالَ فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: " مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ".

وأخرج الحاكم في "المستدرک" (1/339) وعبد بن حميد في "المنتخب" وهو في "الصحيحة" (1298) كلاهما من طريق محمد بن المنكدر سمعت جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أنبئكم بخياركم من شراركم؟ قالوا بلى! قال: خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم عملاً".

طال عمره، فليحسن عمله وخُلِقَ سبق أخاه الشهيد

أخرج أبو داود (صحيح سنن أبي داود 2202) - واللفظ له - والنسائي، كلاهما عن عُبَيْدِ بْنِ خَالِدِ السُّلَمِيِّ قَالَ: "أَخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقُتِلَ أَحَدُهُمَا وَمَاتَ الْآخَرُ بَعْدَهُ بِجُمُعَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، فَصَلَّيْنَا عَلَيْهِ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا قُلْتُمْ فَقُلْنَا دَعْوَاتًا لَهُ وَقُلْنَا اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَالْحَقُّهُ بِصَاحِبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِنَ صَلَاتُهُ بَعْدَ صَلَاتِهِ، وَصَوْمُهُ بَعْدَ صَوْمِهِ، شَكَّ شُعْبَةُ فِي صَوْمِهِ، وَعَمَلُهُ بَعْدَ عَمَلِهِ، إِنَّ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ".

فانظروا - رحمكم الله - كيف سبق الأخ الذي مات على فراشه أخاه الشهيد، وارتفعت درجته فوق درجته بسبب أسبوع متعه الله به؟! فكيف لو عاش بعده سنة أو أكثر، فاغتنموا - رحمكم الله - حياتكم؛ فإن الموت يأتي بغتة.

وروى الإمام البيهقي في "الزهد" (2/73) وهو في "الصحيحة" (2591) عن طلحة بن عبيد الله: أن رجلين من بليي - وهو حي من قضاة - قتل أحدهما في سبيل الله، وآخر الآخر بعده سنة ثم مات، قال طلحة: فرأيت في المنام الجنة فتحت، فرأيت الآخر من الرجلين دخل الجنة قبل الأول، فتعجبت. فلما أصبحت ذكرت ذلك، فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أليس قد صام بعده رمضان، وصلى بعده ستة آلاف ركعة، وكذا وكذا ركعة لصلاة السنة؟".

وأخرج الإمام أحمد (1/177)، وابن خزيمة في "صحيحه" (310)، والحاكم (1/200)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

عَنْ غَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدًا، وَتَابِيًّا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُونَ: كَانَ رَجُلَانِ أَخَوَانِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا أَفْضَلَ مِنَ الْآخَرِ فَتُوفِّيَ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُهُمَا، ثُمَّ عُمِّرَ الْآخَرُ بَعْدَهُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ تُوفِّيَ فَذَكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَضَلُّ الْأَوَّلِ عَلَى الْآخَرِ فَقَالَ: أَلَمْ يَكُنْ يُصَلِّي؟ فَقَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَانَ لَا بَأْسَ بِهِ، فَقَالَ مَا يُدْرِيكُمْ مَاذَا بَلَغَتْ بِهِ صَلَاتُهُ، ثُمَّ قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلَوَاتِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ بِبَابِ رَجُلٍ عَمِرٍ

عَذَّبَ يَفْتَحِمْ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا تُرَوْنَ يُبْقِي ذَلِكَ
مِنْ دَرْنِهِ.

(48)

إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإذا أحب الله قوماً ابتلاهم

قال الله تعالى في سورة البقرة:
(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (155) الذين إذا
أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون (156) أولئك
عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)
(157).

أخرج أبو داود في "سننه"، والحاكم، وأحمد - واللفظ له -
وهو في "الصحيحه" (959)، عن أبي موسى قال: قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ
لَيْسَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ إِلَّا عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا الْقَتْلُ
وَالْبَلَاءُ وَالزَّلَازِلُ". ولفظه عند أبي داود: "أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ
مَرْحُومَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا
الْفِتْنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ".

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - فيما أخرجه البخاري
ومسلم - رحمهما الله - أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال: "من يرد الله به خيراً يُصب منه". أي: يصيبه بلاء .
وأخرج الإمام الترمذي ، وابن ماجه ، وهو في "الصحيحه" (146)
عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن
عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً
ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط".
قال القاضي الفضيل بن عياض - رحمه الله -: الناس ما
داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهم البلاء صاروا إلى
حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى
نفاقه .

وفي الحديث الصحيح (الصحيحة:147) الذي أخرجه الإمام الدارمي والإمام أحمد - رحمهما الله - عن صهيب قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: يا رسول الله ! ومم تضحك؟ قال:

"عجبت لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن".

أشد الناس بلاء الأنبياء

أخرج ابن ماجه، وابن سعد، والحاكم، وهو في "الصحيحة" (144) عن أبي سعيد الخدري قال: "دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك، فوضعت يدي عليه، فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ! ما أشدها عليك! قال: إنا كذلك ، يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر . قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: ثم الصالحون، إن كان كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة التي يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء".

الصبر على الابتلاء علامة خير

قال الله تعالى في سورة الزمر: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب(10)). فالصبر أخي المسلم علي الابتلاء علامة خير كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود بإسناده عن المقداد بن الأسود مرفوعاً وهو في "الصحيحة" (975): "إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصبر".

وأخرج البخاري ومسلم - رحمهما الله - عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة، قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت إني أضرعُ وإني أتكشفُ، فادعُ الله لي، قال: إن شئت صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئت

دَعَا اللَّهَ أَنْ يُعَافِيكَ، فَقَالَتْ: أَصْبِرْ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ قَادِعُ اللَّهِ لِي أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ قَدَعًا لَهَا".

لذا قال بعض السلف الصالح - رحمهم الله -: إذا نزلت بك مصيبة فصبرت كانت مصيبتك واحدة، وإن نزلت بك ولم تصبر فقد أصبت بمصيتين، فقدان المحبوب ، وفقدان الثواب .

فالصبر على الابتلاء عبادة لله عز وجل قال الله تعالى في سورة الحج :

(ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين(11)).

أصيب عروة بن الزبير - رحمه الله - في قدمه فقرر الأطباء قطعها، فقطعت. فما زاد على أن قال: اللهم لك الحمد فإن أخذت فقد أبقيت، وإن ابتليت فقد عافيت. فلما كان من الغد ركلت بغلة ابنه محمدا - وهو أحب أبنائه إليه ، وكان شاباً يافعاً - فمات من حينه ، فجاءه الخبر بموته، فما زاد على أن قال مثل ما قال في الأولى، فلما سئل عن ذلك قال: كان لي أربعة أطراف فأخذ الله مني طرفاً وأبقى لي ثلاثة، وكان لي سبعة من الولد فأخذ الله واحداً وأبقى لي ستة، وعافاني فيما مضى من حياتي ثم ابتلاني اليوم بما ترون، أفلا أحمد على ذلك؟!

الابتلاءات للمسلم رفع للدرجات وكفارات للخطايا

أخرج الإمام أحمد - واللفظ له - وغيره، وهو في "الصحيحة" (2599) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ وَكَانَ لَجَدِّهِ صُحْبَةٌ أَنَّهُ خَرَجَ زَائِرًا لِرَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَبَلَغَهُ شِكَاؤُهُ، قَالَ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَتَيْتُكَ زَائِرًا عَائِدًا وَمُبَشِّرًا، قَالَ: كَيْفَ جَمَعْتَ هَذَا كُلَّهُ؟ قَالَ خَرَجْتُ وَأَنَا أُرِيدُ زِيَارَتَكَ فَبَلَغَنِي بِشِكَاؤِكَ فَكَأَيْتُ عِيَادَةً، وَأَبَشَّرُكَ بِشَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: "إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ مَنَزَلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ ابْتِلَاؤُ اللَّهِ فِي جَسَدِهِ،

أَوْ فِي مَالِهِ، أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ".

وأخرج الترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وغيرهم، وهو في "الصحيحة" (143) عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدَّ بَلَاءً؟ قَالَ: "الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ، فَيَبْتَلِي الرَّجُلَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ حَاطِيَةٌ".

وأخرج الإمام البخاري في "صحيحه" عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - زَوْجَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشُّوْكَهَ يُشَاكُهَا".

وأخرج الإمام مسلم في "صحيحه" عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ: دَخَلَ شَبَابٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ بِمِثْيَ وَهُمْ يَضْحَكُونَ، فَقَالَتْ: مَا يَضْحِكُكُمْ؟ قَالُوا فُلَانٌ خَرَّ عَلَى طَنْبٍ فَسَطَّاطٍ فَكَادَتْ عُنُقُهُ أَوْ عَيْنُهُ أَنْ تَذَهَبَ، فَقَالَتْ: لَا تَضْحَكُوا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَهَ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَتَبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُجِيتٌ عَنْهُ بِهَا حَاطِيَةٌ.

وأخرج ابن سعد في "الطبقات" (2/207) وهو في "الصحيحة" (1103) عن أبي بردة عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ويحسبها عائشة قالت: مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضاً اشتد منه ضجره أو وجعه، قالت: فقلت: يا رسول الله إنك لتجزع أو تضجر، لو فعلته امرأة منا عجبت منها، قال: "أو ما علمت أن المؤمن يشدد عليه ليكون كفارة لخطاياها".

وأخرج الإمام مسلم، والترمذي، وأحمد، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما يصيب المؤمن من وصب، ولا

نصب، ولا سقم، ولا حزن حتى الهم يهمله، إلا كفر به من سيئاته".
ومعنى الوصب: الوجد والمرض. ومعنى النصب: التعب.

(49)

مصدر المعرفة الصحيح

في سورة النحل (70/ نزول) بين الله تعالى أنه خلق الناس لا يعلمون شيئاً، ثم زوّدهم بوسائل المعرفة، قال تعالى:

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (78).

قال السعدي - رحمه الله -: خص الله تعالى هذه الأعضاء الثلاثة، لشرفها، وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم .

قلت: بعد أن منّ الله علينا بهذه الأعضاء المهمة، نَبَّهَ على أهمية استعمالها في طاعة الله تعالى، فمن استعملها في الحق، استعمله الله في العمل الصالح، فيكون العبد بعدئذ، عبداً لله شاكراً.

لذا ذمّ الله الكثرة التي سقطت في الابتلاء فقال في سورة النمل (48/ نزول): (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) (73). وامتدح القلة فقال في سورة سبأ (58/ نزول): (..اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ

الشُّكُورُ (13). وقال في سورة المؤمنون (74/نزول): (وَهُوَ
الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)
(78).

والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقاراً
إليها، وصرافها في طاعة الله تعالى، وصرافها عن صرْفها
في المعصية.

وتحديد مصدر العلم الصحيح، أو المعرفة الصحيحة، من
أهم قضايا المنهج الصحيح.

قال ابن تيمية - رحمه الله - في "مجموع الفتاوى" (2/4):
"ولهذا كان طائفة من أئمة المصنفين للسنن على الأبواب،
إذا جمعوا فيها أصناف العلم، ابتدأوا بأصل العلم والإيمان،
كما ابتدأ البخاري صحيحه ببدء الوحي ونزوله، فأخبر عن
صفة نزول العلم والإيمان على الرسول أولاً، ثم أتبعه
بكتاب الإيمان الذي هو الإقرار بما جاء به، ثم بكتاب العلم
الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه ترتيبه الحقيقي، وكذلك
الإمام أبو محمد الدارمي - رحمه الله - صاحب المسند،
ابتدأ كتابه بدلائل النبوة".

ويبين ابن القيم في كتابه "الفوائد" (صفحة: 116) أن سبب
انحراف المنحرفين مرتبط بانحرافهم عن مصدر المعرفة
الصحيح، فقال:

ومن هنا يتبين انحراف أكثر الناس عن الإيمان لانحرافهم
عن صحة المعرفة وصحة الإرادة.
ثم بين مصدر المعرفة الموصل إلى الاستقامة والهدى
فقال:

ولا يتم الإيمان إلا بتلقي المعرفة من مشكاة النبوة، وتجريد
الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق، فيكون علمه
مقتبساً من مشكاة الوحي، وإرادته لله والدار الآخرة، فهذا
أصح الناس علماً وعملاً، وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر
الله، ومن خلفاء رسوله في أمته. أهـ.

فأول مصدر من مصادر المعرفة لدى المسلمين، هو
الوحي من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم،
وهو مصدر المعرفة الحق الذي يدونه لا تستقيم حياة، ولا
ينعم عيش، فهو هدى الله الذي أنزله لهداية الناس

وإصلاحهم. وهم لا يعدلون بهذا المصدر بديلاً، ولا يرون له مثيلاً، فهو مصدر اصطفاه الله لهم.

قال ابن تيمية - رحمه الله - في "مجموع الفتاوى" (1/3):
 وبعث الله محمداً بأفضل المناهج والشرع، وأحبط به أصناف الكفر والبدع، وأنزل عليه أفضل الكتب والأنبياء، وجعله مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء. وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله. وهو شهيد عليهم، وهم شهداء على الناس في الدنيا والآخرة بما أسبغه عليهم من النعم الباطنة والظاهرة، وعصمهم أن يجتمعوا على ضلالة إذ لم يبق بعده نبي يبين ما بدل من الرسالة، وأكمل لهم دينهم، وأتم عليهم نعمه ورضي لهم الإسلام ديناً، وأظهره على الدين كله إظهاراً بالنصرة والتمكين، وإظهاراً بالحجة والتبيين، وجعل فيهم علماءهم ورثة الأنبياء يقومون مقامهم في تبليغ ما أنزل من الكتاب، وطائفة منصور لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى حين الحساب. وحفظ لهم الذكر الذي أنزله من الكتاب المكنون كما قال تعالى في سورة الحجر: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (9). فلا يقع في كتابهم من التحريف والتبديل كما وقع من أصحاب التوراة والإنجيل. وخصَّهم بالرواية والإسناد الذي يميز به بين الصدق والكذب، الجهابذة النقاد، وجعل هذا الميراث يحمله من كل خلف عدوله أهل العلم والدين، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، لتدوم بهم النعمة على الأمة، ويظهر بهم النور من الظلمة، ويحيي بهم دين الله الذي بعث به رسوله، وبين الله بهم للناس سبيله، فأفضل الخلق أتبعهم لهذا النبي الكريم المنعوت في قوله تعالى في سورة التوبة: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (128).
 أما المصدر الثاني من مصادر المعرفة فهو الكون بسمائه، وأرضه، وشجره، وحجره، وجميع الخلق فيه.
 قال الله تعالى في سورة الغاشية: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى

الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)
فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21).

(50)

الحذر من الأهواء

لقد نَزَّهَ اللهُ تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن النطق
بالهوى ، أو أن يقول شيئاً من عند نفسه في أمر الدين ،
فكان مطلع سورة النجم :- (والنجم إذا هوى، ما ضلَّ
صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى).
قال ابن كثير : وقوله تعالى :- (ما ضلَّ صاحبكُم وما غوى)
، هذا هو المقسم عليه وهو الشهادة للرسول صلى الله

عليه وسلم بأنه راشد ، تابع للحق ، ليس بضال ، والضال هو الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم ، والغاوي هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره ، فنزّه الله رسوله ، وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود وهي علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه ، بل هو صلاة الله وسلامه عليه وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، لذا قال الله تعالى :- (إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) ، أي: إنما يقول ما أمر به يبلغه كاملاً موفوراً من غير زيادة أو نقصان . اهـ .
وحيّن خطّ النبيّ صلى الله عليه وسلم خطّه المستقيم الذي قال عنه : هذا صراط الله مستقيماً ، كان لزاماً على المتتبع لهذا الصراط المستقيم ألا يتبع الهوى ، قال تعالى في سورة النازعات :-

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ). قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في مجموع الفتاوى (28/131) : ونفس الهوى وهو الحب والبغض الذي في النفس لا يلام عليه ، فإنّ ذلك قد لا يملك وإنما يلام على اتباعه .

وقال أيضاً : ومجرد الحبّ والبغض هوى ، لكن المحرم إتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله . اهـ .
إذن فهذا الخط الذي خطّه النبي صلى الله عليه وسلم هو مراد الله تعالى الذي قال في سورة الجاثية :- (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) .

وخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال في سورة الشورى :- (فَلذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) . بعد أن قال في السورة :- (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) .

فالحكم حكم الله وما أوحى إلى نبيه ، كقوله تعالى في سورة النساء:- (فإن تنازعتم في شئٍ فردُّوه إلى الله والرسول) وقوله تعالى في سورة المائدة :- (فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم عمّا جاءك من الحق). والدعوة إلى الله على بصيرة يبدأ بيانها بالعلم النافع من أجل أن نكون على الصراط المستقيم ، صراط المرسلين ، صراط من أناب إلى الله تعالى .

لذا قال تعالى في سورة الشورى :- (شرّع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه). قال ابن تيمية في مجموع الفتاوي (3/421) : وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله .

ثم قال الله تعالى في سورة الشورى :- (وما تفرّقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم). قال ابن تيمية في المجموع (1/14) : فأخبر أن تفرّقهم إنما كان بعد مجيء العلم الذي بيّن لهم ما يتقون ، فإنّ الله ما كان ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم ما يتقون ، وكذلك الحال في هذه الأمة ، فإنّ التفرّق لم يقع بينها إلّا بعد قيام حجة الله عليهم بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أمرهم بالائتلاف والاجتماع ونهيمهم عن التفرّق والاختلاف وبعد تحذير النبي صلى الله عليه وسلم لأمته من التفرّق ، وبعد أن قصّ الله علينا تفرّق الأمم السابقة واختلافهم وذلك حتى يكون لنا العبرة فيهم فلا نختلف كما اختلفوا ولا نتفرّق كما تفرّقوا. اهـ .

فالعلم النافع إذاً هو العلم الذي ينتفع به من استقام على الجادة وتبصّر الصراط المستقيم ، فأخضع هوى نفسه له وحذّر الذي حذّر منه رب العالمين ، أمّا من لم ينتفع بما جاء

به العلم النافع ولم يُخْضِعْ هوى نفسه له بل حاد عنه
وانساق تبعاً طمعاً وحسداً وعناداً واستكباراً فإنه يكون
بذلك أخرج نفسه عن الصراط المستقيم، فإن كان علم
ولم يستقم فكأنه لم يعلم ولا يمكن أن يسمى بذلك عالماً
، لذلك كان قول الله تعالى في سورة الجاثية :- (ولا تتبع
أهواء الذين لا يعلمون). لأنهم لو علموا وعملوا بما علموا
واستنكروا الهوى لكانوا يعلمون، فالله تعالى بذلك نفى
عنهم العلم النافع واتباع ما قال الله وقال رسوله صلى
الله عليه وسلم .

قال تعالى في سورة الروم :- (بل اتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أهوائهم بغير علمٍ فمن يهدي من أضلَّ الله وما لهم من
ناصرين) .

فهذه عاقبة المتفرقين المبتعدين عن الخطَّ المستقيم أنه
ما لهم من ناصرين .

ثم قال الله تعالى في سورة الروم :- (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ
ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

قال ابن ريان في كتابه "الروض الرِّيان" : حصول العلم
يوجب ارتفاع الخلاف فكيف يجيء العلم سبباً لحصول
الاختلاف ؟!

الجواب : ما كان مقصودهم نفس العلم ، بل كان قصدهم
طلب الرئاسة والتقدم ، لأنهم علموا وعاندوا ولو كان
قصدهم نفس العلم لما اختلفوا ، ولكن تحاسدوا وعاندوا .
ا.هـ

قلت : ويستدل على الذي قاله ابن رِيَّان قوله تعالى في
سورة محمد :- (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من
عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين
طبع الله على قلوبهم وأتَّبَعُوا أهوائهم) .
قال ابن كثير : أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح .

وقال تعالى في سورة الأعراف :- (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذَّبوا بآياتنا فأقصص القصص لعلهم يتفكرون).

ولابن القيم - رحمه الله - في كتابه الفوائد ، كلام نفيس في تفسير هاتين الآيتين بهذا الإطلاع عليه .

ومن ثم جاء تنبيه الله تعالى لأصحاب الصراط المستقيم في سورة الروم فقال :- (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين).

ثُمَّ عَرَّفَ حَالِ مُتَّبِعِي الْهَوَى فَقَالَ بَعْدَهَا مَبَاشِرَةً :- (من الذين فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ).

كما قال تعالى في مطلع سورة القمر :- ((وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ))

لقد حصل التكذيب بعد العلم، وقال تعالى في سورة القصص :- ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ إِنَّهَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون).

وفي قوله تعالى :

((ومن أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله))

يقول الشيخ السعدي - رحمه الله :- فهذا من أضل الناس ، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم ، الموصول إلى الله تعالى وإلى دار كرامته فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه ودعاه هواه إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الهلاك والشقاء فاتبعه وترك الهدى أ.هـ.

لذلك كان قوله تعالى مفسراً في سورة الجاثية :- (أفرايت من اتخذ إليه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه

وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون).

لقد أضلَّ الله تعالى بعد بلوغه العلم وقيام الحجة فهو إذاً من الظالمين، قال تعالى يخاطب رسوله في سورة البقرة والمراد أمته :- ((ولئن اتبعت أهوائهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين)).

وقال تعالى في سورة الرعد :- ((ولئن اتبعت أهوائهم من بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من وليٍّ ولا واق)) . قال ابن كثير : وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية ، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

من أجل هذا كلُّه : حذَّر الله تعالى إتباع الهوى فقال في سورة النساء :- ((فلا تتبعوا الهوى)) كما أمر الله تعالى نبيه داود عليه السلام بأن يحكم بين الناس بالحق ونهاه عن إتباع الهوى فقال في سورة ص :- ((يا داود إِنَّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقِّ ولا تتبع الهوى فيُضِلَّكَ عن سبيل الله إِنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما تَسُوا يوم الحساب)). وقال في سورة الكهف :- ((ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرطاً)).

عاقبة متبع الهوى أنه يعمى رؤية الخط المستقيم

قال تعالى في سورة المائدة :- ((لقد أخذنا ميثاق بين إسرائيل وأرسلنا إليهم رُسُلًا كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذَّبوا وفريقاً يقتلون، وحسبوا ألاَّ

تكون فتنة فعَمُّوا وصمُّوا ثم تاب الله عليهم ثمَّ عَمُّوا
وصمُّوا كثير منهم والله بصير بما يعملون)).
قال ابن كثير : وحسبوا أن لا يترتب لهم شرٌّ على ما صنعوا
، فترتب وهو أنهم عموا عن الحق وصمُّوا فلا يسمعون حقاً
ولا يهتدون إليه.
فحذار حذار أخي المسلم ، لا تنجرف مع تيار الهوى فتعمى
الحق ، ولا تبصر الخط المستقيم.
كما أنه أخي المسلم لا بدَّ أن تفهم وتعي عقيدة الولاء
والبراء حتى تحذر، قال ابن كثير : كانت بنو إسرائيل تعامل
الأنبياء أسوأ المعاملة ففريقاً يكذبونه وفريقاً يقتلونه ، وما
ذاك إلاَّ لأنهم يأتونهم بالأمر المخالفة لأهوائهم وآرائهم
وبالإلزام بأحكام التوراة التي تصرفوا في مخالفتها ، ولهذا
كان يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم ولهذا قال
تعالى في سورة البقرة :- ((أفكلما جاءكم رسول بما لا
تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون)) .
إلى أن قال الله تعالى :- ((ولن ترضى عنك اليهود ولا
النصارى حتى تتبع ملثهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن
اتبعت أهوائهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من
وليٍّ ولا نصير)).

